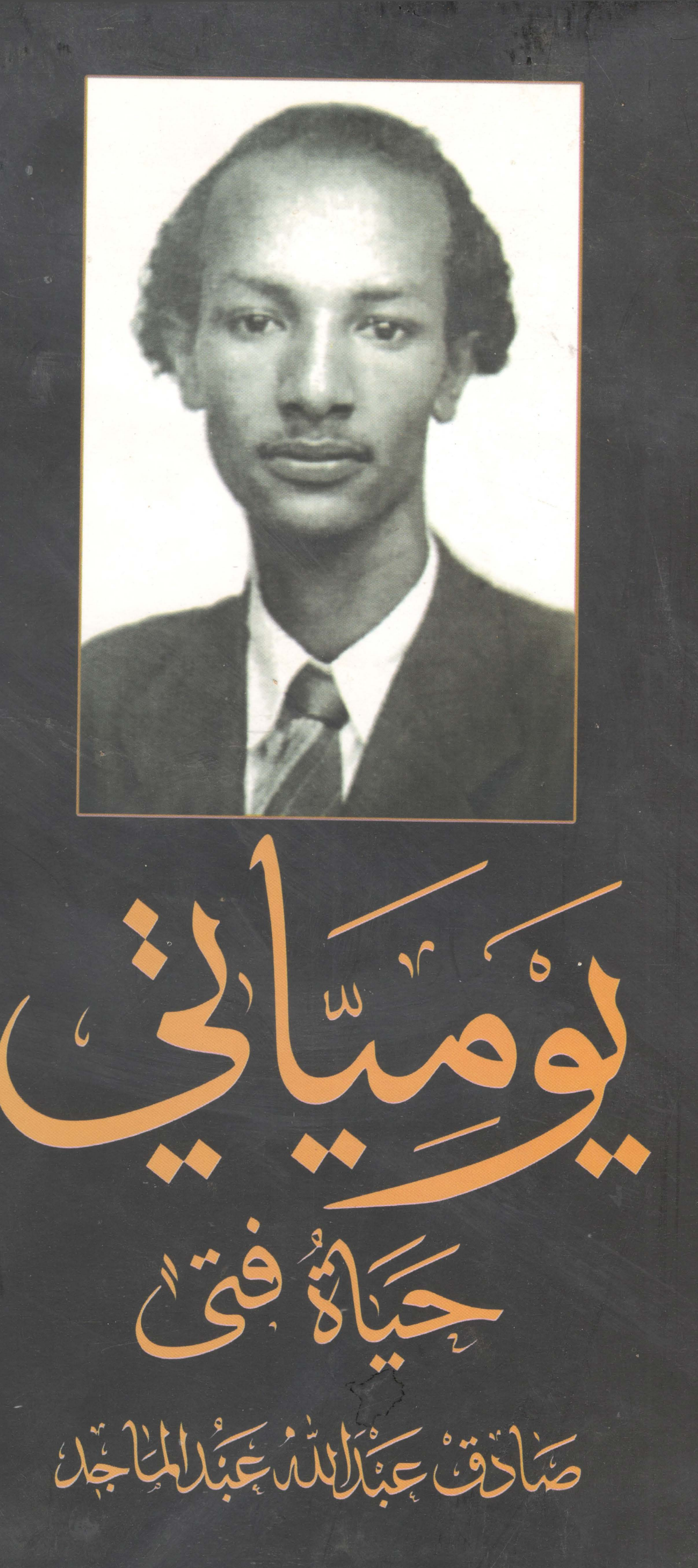
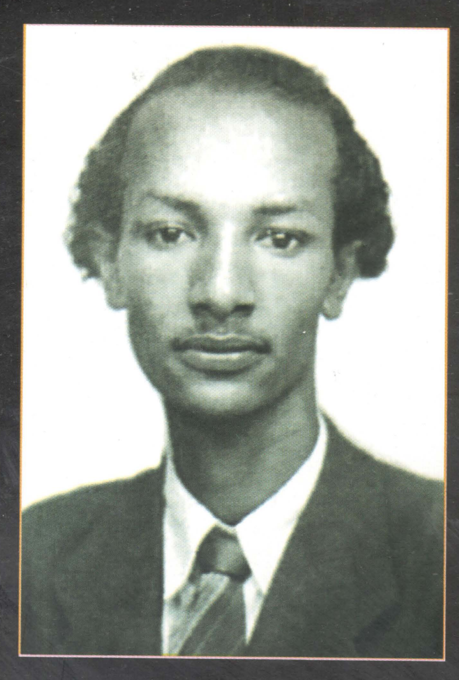


# يومياتي

## حياة فتى

صادق عبدالله عبدالماجد



* يعد صادق عبدالله عبدالماجد من ركائز حركة الإسلام في السودان ومن مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين، تلقى تعليمه الابتدائي والوسطى بالسودان، غادر إلى مصر تكملة لمشواره العلمي بعد أن أوقفته إدارة التعليم الإنجليزي عن مواصلة تعليمه في السودان.

* فحصل على البكالوريا من شبرا وبكالوريوس الحقوق من جامعة فؤاد الأول ١٩٥٤.. وشهدت له تلك الفترة نشاطاً سياسياً ثقافياً واجتماعياً حيث بدأ كتابة الشعر في عمر مبكر وأكمل ديوانه وهو طالب بمدرسة حلوان الثانوية.

* بايع الأمام حسن البنا أثناء دراسته في مصر في العام ١٩٤٢، وبعودته إلى السودان نوفمبر ١٩٥٤ انخرط في العمل الدعوي والسياسي والصحفي منافحاً ومكافحاً من أجل استقلال السودان وتحكيم الدستور الإسلامي.. فعمل معلماً بمدارس الأحفاد، كانت له مواقف صلبة وآراء صارخة ضد سياسة الحكومات التي أعقبت خروج المستعمر، كان عضواً بالمجلس الأعلى للجبهة الوطنية المعارض لنظام عبود ممثلاً للإخوان المسلمين والذي يضم إسماعيل الأزهري عن حزب الاتحادي الديمقراطي والهادي المهدي عن حزب الأمة وعلي الميرغني عن حزب الشعب الديمقراطي.

* انتخب عضواً بالجمعية التأسيسية عن دائرة الخرطوم شمال (٣٣) في العام ١٩٦٥م.

* يعتبر من قادة الصحافة الحديثة في البلاد حيث بدأ مسيرته الصحفية منذ الأربعينات وكان لعمود (ما قل ودل) الصيت الذائع والأثر البالغ في نفوس الناس.

* أخذ السجن بعضاً من سنوات عمره إبان حكم المستعمر، واعتقل في اليوم التالي لانقلاب جعفر نميري وبعد انتفاضة إبريل رفقة مجموعة من الإسلاميين.

* انتخب مراقباً عاماً للإخوان المسلمين في العام ١٩٩١ حتى مارس ٢٠٠٨م.

* له دكتوراة فخرية من جامعتي الخرطوم وأم درمان الإسلامية.

* ترأس تحرير عدد من الصحف.

* كتب العديد من القصائد وله ديوان شعر بعنوان لمحات عابرة.

* لم أكن أقنع بالسكوت والفرار كعادتي، ولكني اتخذت الثورة على الجمود بنداً في حياتي، فليس بعجيب أن أفكر قليلاً في بحث نوع من الحياة يغاير ما وجدته.

* للنفوس كما للقلوب أعياد ومواسم ، تتمرد فيها على كل ما يجلب الحزن، وترتدي فيها كل ثوب من أثواب السرور واللذة والمتعة!

فدومي أيتها النفس الطاهرة على هذا العهد، وهذه السنة، ففي الساعات التي تنجلين فيها أكون أسعد مخلوق يمشي على الأرض. لا لشيء إلا لأنني أحيا من خلالها في دنيا غير دنيا الناس، في دنيا الخلود وعالم الحرية الذي تتلاعب في ملائكة الشعر، وترقص فيها كواعب السعادة على أنغام حلوة يبعثها مزهر النشوة، فترددها آفاق الحياة الأبدية، ويتجاوب رجعها في أعماق الزمان الحالم، فلا يلبث أن يتمايل طربا وعجبا زورق البشرية السابح في خضم الدهور من غير هاد ولا دليل.

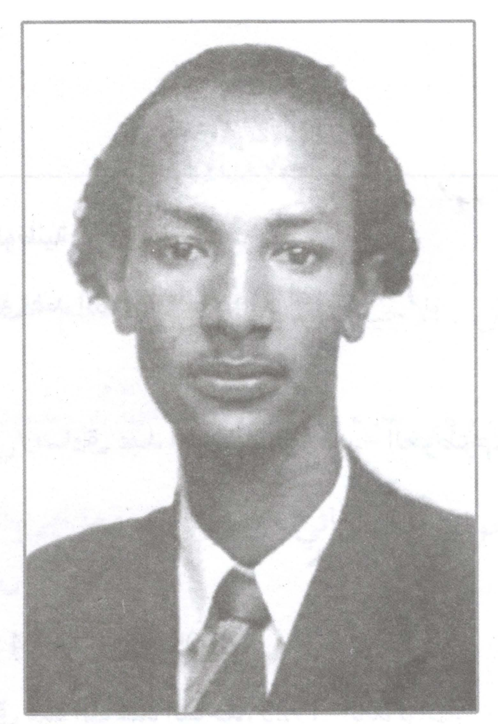
لا أعرف إن كانت أيامي في الحياة طويلة أو قصيرة، ولكني سأعمل ما يوحي به القلب المؤمن العامر بالثقة، غير مكترث في ذلك للجماعة في شيء.. سأعمل وأنا (صادق) وسأتحمل وحدي نتيجة ما أعمل وأنا (صادق) أيضا..

لن يقعد بي عن رسالتي مقعد، وسأخلص في عملي ما استطعت وأودي واجبي حتى يقنع ضميري فإن أصبت بعد ذلك نجاحا، فواجب لا أرجو وراءه من جزاء وإلا فواجب أديته وأنا قانع مرتاح الضمير.

سأفصح عما في نفسي جهراً وسأغضب وأقرر على كل وضع شاذ ولكنني سأكون (صادقا) لا يعتوروني التهويل في شيء..

ردمك: ISBIN: 978-99942-1-149-4

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة



# يومياتي

## حياة فتى

صادق عبدالله عبدالماجد

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر- السودان

818.03 صادق عبد الله عبد الماجد، 1975-

ص.ي

يومياتي/ صادق عبد الله عبد الماجد.- الخرطوم: صادق عبد الله عبد الماجد، ٢٠١٨م.

140 ص؛ 24 سم

ردمك: 978-99942-1-149-4

1. صادق عبد الله عبد الماجد، 1925-المذكرات.

2. صادق عبد الله عبد الماجد، 1975.

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

**الإهداء**

إلى جميع إخوتي.. الأحياء منهم والذين نفذ فيهم قضاء الله وقدره، أهدي لهم هذه اليوميات ، وهي جزء من حياتي . راجياً أن يتقبّلها الله تعالى، وأن تجد مكانها في قلوب إخواني وأصدقائي وما أكثرهم وما أقربهم من القلب في زمالةٍ وإخاءٍ ومودة.

صادق عبدالله عبدالماجد

## مقدمة

الحياة مفعمة بالعظات والعبر! والعاقل فيها من تدبر واعتبر!! ولا أراني في حاجة لأن أزيد هذا القول إيضاحاً .

الحياة تلقي علينا كل يوم درساً قاسياً؛ ولكن قليل أولئك الذين ينصتون ولعمري لو أخذ كل واحد بما تمليه علينا من دروس ، لكان للإنسان شأن غير الذي هو فيه خير ولكن الناس عفا الله عنهم !!

أيام قلائل تلك التي نحياها على ظهر البسيطة ومهما طال الأمد وامتد الأجل ، فإنه لا محالة فانٍ! ولكن لماذا تخلد الذكرى بعد الموت، وتفنى ذكري بعد الحِمام !؟ هذا سؤال تجيب عنه الأيام !!

## " وبعد "

هذه كلمات أملتها عليَّ النفس وهي سابحة في فضاء غير هذا وخطرات كانت كالسيل تنحدر، ولكن من أعماق نفسٍ طال عليها الزمان ، وهي لم تزل حائرة ضالة في مهامة الكون ، وظلماته المدلهمة !! ولكن صبراً فقد لا يطول الزمان حتى تنجلي هذه الغياهب وتنمحي هذه الظلمات ، فيصبح كل شيء في الحياة سهلاً ميسوراً !! سوف تتمزق الحجب والأستار؛ وتتحطم القيود والأغلال فيرى كل شيء في الحياة من بعدُ حراً طليقاً !

أيام تمر ، وليال تكر ، والحادثات بين هذي وتلك ، كراتٌ تتقاذفها أيدي البَشر، وطوبى لمن نال منها مطلب وشفى غلته !!

معذرة ...! فللذكرى كما للناس ، أكباد ...!!

وأعود بعد ذلك إلى حيث أريد، فوديان الخيال شاسعة، لا تُحَد، واسعة مالها من قرار، وأن الذي يجري في طلبها كالساعي للوصول إلى مرافئ الآفاق. فلنترك ذلك الوادي جانباً ونتناول في رفق حديث الحياة ...!!

٢٨ يناير ١٩٤٢م

صادق عبد الله عبد الماجد

# يوميّاتي

**إنها في الواقع يوميات، وإنها حياة فتي مازال يغمض عينيه ويفتحها فلا يرى في الوجود شيئاً أمامه !!!؟**

**فلا عجب إذن ، إذا توخّيتُ فيها الصدق ، وتحرّيتُ الواقع في كل كلمة فيها. وما حدثت نفسي قبل هذا بالكذب، حتى التزم الصدق فيما أريد ذكره، ولكني أقول ذلك لعلمي أن بعض الناس لا يرضون ذكر الحديث عن النفس وإذا ارتضوه فإنهم لا يؤمنون به وسواء عندي، اصدّقوا ما أقول ام كانوا له من المنكرين !!**

**بدأت حياتي كما بدأها الناس جميعاً لا اشذ عنهم في شيء وكنت طفلاً ، كما كانوا قبلي أطفالاً. وعن هذه الطفولة وحدها أتحدث اليوم. وقد يتدرج بنا القول حتى نصل إلى فروع هذا البذرة التي مازالت تنمو ولا تدري ما وراء الأفق من العواصف الهوج والأنواء!!!**

**كنت أريد ان أدون الحوادث ابتداء من هذا اليوم ولكن أبيت على نفسي، إلا ان أكتب عما قبل اليوم بل ومن أول يوم أذكره من حياتي في شيء من الإيجاز فربما كان ذلك لا يخلو من فائدة .**

**٣١ يناير :**

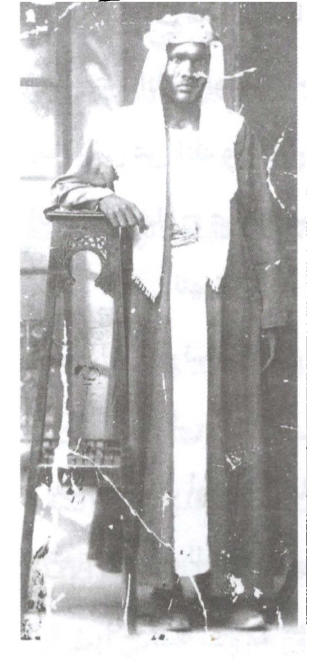
**ألفت المصائب وأنا طفل لا أعرف من الحياة إلا إنني موجود بها وعرفت من ذلك الحين أن الحياة مزيج من الألم والسرور، وأنني سأعرف منها ومن أبنائها الشيء الكثير ...!!!**

**مات عمي الأمين !! وكان شاباً وديعاً قصفت غصن شبابه يد المنون العاتية وهو لم يزل في ضحوة العمر، وكأنه كان يحس بدنو أجله إحساساً قوياً ، بيّنه لنا في كتابه (أعراس ومآتم ) الذي طبعه له بعض أصدقائه بعد وفاته وكنت اذكر ذلك العطف الذي أولانيه ذلك العمُّ الشفوق .**

**مات عمي على إثر حمى أصابته حتى أفقدته وعيه، فسمعت وأنا بين جدران المنزل القريب من المستشفى صراخاً وعويلاص فادركت تماماً وأنا جالس مع جدتي وأخواتي الصغار أن عمي توفي !! وما مضى زمن قليل حتى جاء النعي يحمل الخبر فبكيت وأنا ذلك الطفل الهزيل حتى شعرت بمرارة البكاء في أعماق نفسي!!**

**ولست أنسى أياماً قضيتها معه، يوم كان مدرساً مع والدي في مدرسة الهجرة. لست انسى تلك الأيام الجميلة التي ما كان يعيد ذكراها في نفسي ويبعثها من جديد، غير ذكرى طعام الإفطار الذي كنا نتناوله جميعاً!!**

**إنني أبكي طويلاً كلما ذكرت الأمين ، وأيام الأمين . فرحمة الله عليك يا مَنْ قضيت أيام الشباب كلها بالسّمو بوطنك العزيز إلى أوج الكمال ولكن الأيام شيمتها الغدر – فعليك مني السلام يا ابن الأكرمين حتى نلتقي في دار الخلود !**



الأمين علي مدني ولد بمدينة أمدرمان ١٩٠٠م-١٩٢٥م تخرج من كلية غردون ١٩٢٠م من قسم العرفاء للمعلمين، اشتغل معلماً بالمدارس الاولية كان عضواً في جمعية الاتحاد السرية عام ١٩٢٤م التي مهدت لثورة السودان في ذات العام، له شعر مخطوط ونشر بعض منه في كتابه أعراس ومآتم .

إن كنت فارقت الشباب فإنما عُوضّت عنه جنة وحرير
أو كنت غصناً طرحته يدُ البلى فلسوف تعطى نُضرةً وسرور

أحمد عبد الله عبد الماجد

١٩٢٥م

أخذت الأيام تمضي ، وانا أتقلب بين طياتها تقلب الطائر الجريح أرداه السهام، حتى صاح صائح البين مؤذناً بالنوى فرحلت مع والدي إلى بورتسودان، وقضيت فيها معه فترة من الزمن، تذوّقت فيها بعد كأس الأسى التي شربتها من موت " الأمين " كأساً أخرى ما عرفتها من قبل هي كأس الغربة.

كنت في الواقع أتألم لهذا الفراق الممض ، وأبكي بكاء مراً كلما غفلت عني عين الرقيب .. ثم أمسح عن عيني دموعاً حارة ، وأتظاهر بالسرور كلما سمعت صوت والدي !!

ولئن نسيت فلن انسى إنني تعلمت كتابة اسمي في تلك الفترة من الزمن، يوم كان أحد أبناء المدرسين القاطنين معنا في بيت واحد يمسك بأصابعي، ويمررها على حجر الشباك محاولاً بذلك تعليمي الكتابة. ومهما يكن من شيء فقد أدركت قليلاً مالم أكن من قبل أدرك .

انقضت مدة أقامتنا في تلك البلدة التي بلغت فيها طفولتي حداً عجيباً، حيث كنت أُسأل عن الله فأقول إنه جالس على سرير به " بطانية " حمراء !! ولست أدري لماذا كان يسألونني عن الله وأنا في تلك السن الصغيرة؟! وما الذي حدا بهم إلى ذلك؟ أهو هذا الجواب الساذج عن وجود الله تعالى ؟ أم شيء غير هذا لا أعرفه؟!

أقول انتهت مدت الإقامة وقفلنا إلى أمدرمان؛ حيث مكثنا فيها مدة ثم سافرنا بعدها جميعاً إلى بورتسودان مرة أخرى. وهناك في مدرستها الأولية حيث كان يعمل والدي، كنت أجلس في كل فصل يكون للوالد فيه عمل. حتى هدأت نفسي واستكانت للعلم قليلاً ، بعد أن كنت أولي الإدبار هارباً كلما وقع بصري على صفوف التلاميذ في مدرسة الهجرة وهم ينتظمون للدخول في فصولهم !!

كان دارنا ضمن بيوت يقال لها (بيوت ١٢) ولست أنسى يوم جمعت الأيام بيننا وبين بعض الإخوان فتوشجت روابط الإلفة بيننا، وصرنا نلهو ونلعب جميعاً كأننا أفراد أسرة واحدة. مكثنا في هذه البلدة أمداً ليس بالقليل، ثم قفلنا مرة أخرى إلى أم درمان وقضينا فيها مدة لا أذكر بها حادثاً قد حدث.

شاءت الأيام بعد ذلك ان تضرب بعصاها. وسافرت مع والدي إلى طوكر حيث نُقِل إليها. إلا أن هذه البلدة إنني لست أنساها ما حييت. لا لأنني أحببتها حباً جمّاً، ولا لأنني أبغضها بغضاً شديداً ، ولكن لي فيها ذكرى، وما هي ذكرى الهوى؛ ولكنها ذكرى قلب عرفته في جوانح نفس!! مكثت مع والدي في هذه البلدة مدة من الزمن بعيداً عن أهلي. وهكذا ما فتئت الأيام تصوب نحوي سهامها كل يوم، حتى تركت في ذلك الجسم النحيل وهو في طفولته، موضعاً إلا سدّدتْ فيها سهماً.

في ذلك الوقت فقط أحسست بعسر الفراق وألمه. ولم يكن لنا مؤنس في تلك البلد إلا صاحب يعرف والدي، كان يعاودنا في الأسبوع مرة أو مرتين يحمل على ناقته أصنافاً شتى من البطيخ والشمام. فيخفف عنا قليلاً من الوحشة والسكون!!

وهناك صاحب آخر كان يلازم والدي في أغلب أوقات الفراغ فيقطعان الوقت بلعبة الشطرنج حتى يرخي الليل سدوله !!!!!

أما أنا فكنت أجلس على مقعد أمام الدار أذرف الدمع ساخناً واستعيد ذكرى الأهل فازداد ألماً وحسرة !! لست والله أنسى ساعة كنت أرفع رأسي إلى السماء والدمع في مقلتيّ يترقرق، وأنا أسال الله أن يجمع ذلك الشمل الذي تبدد !! كنت أحفظ قليلاً من الشعر؛ وكنت أُرفِّه به عن نفسي قليلاً، كلما ترنّمتُ به في أوقات الألم و ما أكثرها !! وليت الأيام وقفت بي عند ألم الغربة، لكنت أسعد حالاً مما كنت فيه قليلاً، ولكن صروف الليالي أبت أن تفارقني حتى في أبسط وسائل الحياة!! فحدث إنني بدأت دراستي الرسمية في كُتَّاب " طوكر" وفي ذات يوم كانت عندنا حصة تدريب في الأشغال اليدوية. فمر والدي في طريقه إلى مكتبه في المدرسة ومنعني من الدنو من الأوراق المكدسة على الأرض ليأخذ منها الطلاب كفايتهم. ولكني لست أدري، ما الذي دفعني لأن أخالف ذلك الأمر. فدنوت منها وأخذت واحدة، فما إن تقدمت خطوة واحدة، حتى لسعتني عقرب ما ذقت طعمها قبل ذلك .

فتجمعت أمام عيني في سرعة الخاطر هذا الآلام القاتلة، فما استطعت ان أحبس الدموع المنهمرة من عينيّ، تُحدّث كل واحدة منها عن مقدار ما كنت أكتم!! فأسرع الطلبة وأبلغوا الوالد بذلك، فأتى بلون شاحب، ودنا مني، فما استطاع أن يمسك الدمعة التي انحدرت من عينه وبلا تكلف، وكأنما ذكر هذه الوحدة، وعرف مقدار الألم الذي يحز في

نفسي فأخذ يخفف عني بقوله ما استطاع، ولكن دمع الأسى هيهات ان تغلبه إبتسامات السرور !!

فحُمِلتُ إلى المستشفى وطيف أهلي مازال ماثلا أمامي، وانا في أشدّ حالات الألم ولكن لله عيناً لا تنام وعطفاً لا ينسى، فانكشفت تلك السحائب، وبدت شمس الشفاء فبددت كل غيهب وقضى الله أن يزول الألم فزال وان يكون الشفاء فما توانى!!

أمثال هذه الحوادث وغيرها لها بلا شك أثر بالغ في النفس. والإنسان دائماً في حياته رهين الحوادث!!

غادرت هذا البلد وأنا اشكوا منه و أشكر له. ثم عاودناه مرة أخرى، ولكن في صحبة أولئك الذين اكتويت بنّار الشوق إليهم فكانت أيامنا جميعاً أيام خير وهناء. ومن ثم غادرناها حيث لم نعد لها بعد. فوصلنا أمدرمان حيث استمررت في دراستي الأولية أيضاً بمدرسة أبي روف حتى أتممت بها السنة الرابعة بعد أن مكثت بها عامين. وفي نهاية العام الأخير منها أذكر حدوث أضراب طلبة كلية غردون الذي توقدت نيرانه برهة ثم خمدت!! ولم يكن لطالب السنة الرابعة شغل سوى أن يُقْبَل بالقسم الابتدائي (الأوسط). فلا عجب أذن إذا كانت تلك هى أمنيتي. فلم تتحقق في العام الأول، ولكنها صدقت في العام الذي تلاه وكان ذلك في أول عام ١٩٣٤م. هنا ودعت عهد الدراسة الأولية واستقبلت عهداً جديداً لما طالما تمنيت النفس باستقباله !!

ولكن ليت شعري، هل أسدل الستار على هذا العهد الذي أعتبره سعيداً قبل أن أرثيه بكلمات قليلة؟! إن لهذا العهد عليّ دَيْنَاً لا بد من وفائه؛ وان لم يكن يطلب مني حقاً، لأوفيته من نفسي حقاً! وليس معنى هذا أني سألبسه ثوباً غير ثوبه أو أن أمدحه أو أذمّه في

حين أنه لا يستحق المدح أو الذم فكلمة للتاريخ أقولها؛ ولهذا العهد في نفسي كل إكبار وإجلال !!

**أول فبراير ١٩٤٢م :**

كثيراً ما تتغير الأفكار، وتختلف بإختلاف الزمان والحالة التي يكون فيها الإنسان ومن ذا الذي يدري، ما الذي كنت أقوله بالأمس، لو إنني أتممت ما أريد الحديث عنه اليوم!!.

هنا انقصم اليراع في يدي ولست أدري لماذا، فإن كان قد ساءه هذا القول فذلك شيء ما عهدته فيه من قبل. وإن كانت هي من وليدات الصروف التي لازمت صاحبه لزوم الظل، فلا لوم عليه فيما أتاه ولا عتاب!!

لنعود بعد ذلك لأقول كلمتي التي أردت ان أقولها، وهي لم تخرج عن أنها عرض موجز لمآسي التعليم في السودان .

في السودان حكومة، وهذه كلمة كلما نطقت بها أحسست ان في الأعماق نّاراً تتأجج، وسهاماً تترامى وراء سهام !! نعم إن في السودان حكومة أجنبية؛ وكما علمت إنها وضعت للسودان برامجاً ستسعى في تنفيذها بقدر الإمكان ولكن هل فات هؤلاء السكسون أن لله يداً سوف تقضي عليهم عما قليل! فإن لم يكونوا عليمين بذلك فالزمان قد لا يطول حتى يروا بأعينهم جزاء ما اقترفوه في هذا الوطن الوادع الأمين، الذي كلما رام النهوض قليلاً كانوا سبباً قوياً في الهبوط به إلى الحضيض مرة أخرى.

لقد فرضت هذه الحكومة الزائلة قوانين عجيبة للتعليم. وما بعجيب أن يحدث من قوم أمثالهم، مثلما حدث في السودان فالتعليم في السودان إن هو إلا "مصانع " لتخريج الآدميين ليكونوا يوماً ما "عمالاً" في مكاتب الحكومة.

ولما كانت درجات التعليم قاصرة على التخرج من كلية غوردون، فإنهم فرضوا على الراغب في الالتحاق بالمدارس الأولية ألا يجوز له الالتحاق بها إلا اذا كان له من العمر ثماني سنوات فما فوق!!.

يا لها من مأساة عظيمة! ثمانية أعوام يقضيها الواحد جاهلاً لا يعرف من العلم شيئاً. ثمانية أعوام تمضي من العمر وكأنها ليست من العمر في شيء! الذنب ذنب الحكومة والتبعة لا محالة واقعة عليها، فهي التي سارت بهذا الوطن الأمين خطوات حثيثة نحو هاوية الموت، والموت الزؤام !!

فلا عجب إذن، إذا كنت أندب حتى هذه الساعة، تلك السنوات العديدة التي مضت من عمري من غير جرم ولا ذنب، ولا لوم من ذلك على الأهل لأنهم بحكم هذه القيود، مضطرون لتنفيذ ما تأمر به السلطة الحاكمة. وتعساً للحكم والحكام إذا كان كل فرد يسعي لمصلحته الفردية!

وهنا تركت المدارس الأولية بعد ان قضيت فيها زهاء الأربعة أعوام وأنا جد آسف لفراقها. ناقم في ذات الوقت على تلك التصرفات السيئة، التي تتخذها الحكومة الغاشمة الظالمة نحو هؤلاء الأبرياء. فوداعاً عهدي الماضي و يا عهد الحاكمين ... الله أكبر .... الله أكبر !!

## ٢ فبراير :

غاية الإنسان في الحياة لاتحد، وآماله الواسعة فيها ليس لها سهل تنتهي عنده، فلا عجب إذا كان الإنسان يلبس كل يوم ثوباً من الآمال جديداً؛ فلا يصبر اليوم على حال إلا وكان له من الناقضين في غد !!

تظل المآرب والأغراض تجيش في النفوس كما يجيش البحر الزاخر بأمواجه الثائرة !.

لم يكن لي مأرب وأنا في مثل تلك السن، والنفس متعطشة للعلم، إلا ان ألتحق بالقسم الابتدائي (الأوسط) بعد أن خانني الحظ أول مرة! أجل والله كنت متعطشاً للعلم ولكن هل تروي علة الظمآن، جرعة من ماء؟ وهل يسقي الرذاذ أرضاً طال عيها أمد الجدب؟ كلا والله؛ ولكن قد تسكت الجرعة شيئاً من أدام الظمآن ويسقي الرذاذ قليلاً من أديم الثرى !!

فما رأيت بُدّاً من التعلل بتلك الأماني الكاذبة والبروق الخلب، فالتحقت ولولا الضرورة ما التحقت بمدرسة أمدرمان الابتدائية وذلك عندما لاح فجر ١٩٣٤م وأخذت سفينة العلم تسير بي في ماء ضحل، كلما سارت فيه خطوات غاص جزء منها في حمأة البحر!!

كثيراً ما تخدعني الأيام كما يخدع السراب عيون المسافرين ولكن كفى بهذا الخداع درساً لن أنسأه !!

دخلت هذا القسم الجديد وكل شعرة في جسمي أمل يتجدد، ولكن في قرارة النفس ريب عظيم!!

جدير بالذي يلتحق القسم الأولي وله من العمر ثمانية أعوام ان يصبح رجلاً يقدر الواجب حيث يلتحق بالقسم الابتدائي .

ولكن على الرغم من ذلك فقد كانت الخيزرانة، تلعب دوراً خطيراً على أجسام التلاميذ وهم بعد ذلك يتبجحون ويفخرون في كل زمان ومكان بأنهم يربون أبناء الأجيال القادمة .

إلا تعساً للعلم والتعليم والأجيال المقبلة، إن كان قتل النفوس والوجدان أول قربان يذبح على أعتاب العلم!!

وأخيراً دنت السفينة التي كانت تقلني وأقلها، من ساحل حسبته للسلام محطاً، وللآمال المعسولة مقراً، ولكن أسفاً!! لقد غرقت السفينة وهي على مقربة من ذلك الشاطئ الصخري. نعم غرقت السفينة؛ ولكن قفزتُ على لوحة كانت طافية على الماء ووصلتُ بها جانباً من تلك الصخور!!.

حلّ عام ١٩٣٧م وكانت نهايته هي آخر عهدي بالابتدائي، وجاء ميعاد امتحان الالتحاق بالكلية فامتحنت وكنت في النهاية من الذين حقّت عليهم لعنة الإنجليز - لعنهم الله حيث كانوا - فلم يكن من نصيبي أن أُقْبَل بالكلية.

فكان عدم القبول هذا صدمة لفتى قضى أربعاً من سنيّ حياته بين تلك الجدران المظلمة، ولكن تلك الصدمة ما لبثت ان زالت في حينها، حين شعّ من أعماق نفسي أمل كان رابضاً بين الجوانح فبدد ظلام اليأس وأضفى على النفس نوراً صافياً جميلاً!!

لم أتمالك نفسي حينذاك فأمسكت بالقلم، وأنا في أواخر ليلة من ليالي مأتم لجدتي، فكتبت كلمة تحت عنوان ( شكوي والتماس ) وبعثت بها إلى جريدة النيل ضمّنتها بعض الآراء التي كانت تجيش في نفسي؛ ولم أتمالك من إبداء ذلك الأمل الذي كان يساورني؛ لقد نفثتُ فيها ما استطعت ان انفثه، - برغم ما سمعت به من قيود الصحافة في السودان - وتعرّضتُ فيها لذلك الظلم الذي تتخذه لجنة الكلية في قبول الطلب.

وهذه المقالة هي أول مقالة لي اكتبها في صحيفة وكانت بتاريخ ١٩٣٨/١/١٧م وقد خفق قلبي شديداً لأول مرة سمعت فيها وبظهور تلك المقالة لأنني لم أمارس تلك الحرفة التي خلتها أول أمري صعبة عسيرة!! وفي الغد قابلني ناظر المدرسة التي أنا فيها وفي

الحال جابهني قائلاً :( أصبحت تكتب في الصحف يا صادق !؟ ) فأجبته بابتسامة تحمل كل معاني السخرية والازدراء وقلت في نفسي مخاطباً إيّاه أن هذا اليراع سيكون في غدٍ أول ما يعمل على محوك من الوجود الاجتماعي والأدبي وانصرفت عنه .

نسيت نقطة فاتني ذكرها وهي وأنا في السنة الثانية من الابتدائية بدأت أقول الشعر وكان ذلك في عام ١٩٣٥م وكان أول ما بديت به هو الشكوى من الزمان. ولا لوم على في ذلك لأنني رجعت في ذلك الحين إلى الماضي، وذكرت النوائب الذي لقيتني ولاقيتها بوجه طلق فطفقت في ذلك أقول وهو أول بيت من الشعر أفوه به:

مـالي أري العـيش في ذلٍ وفي نكـد ** والنـاس تـشرب كـأس الـذل في رغـد

مـالي وللعـيش يفنـى في مكامنـه ** والـذل يأكـل أجـساماً بـلا عـدد

مـالي أراك بحـال لـست أعرفـه ** أسـتغفر الله مـن بـؤس ومـن نكـد

كـم فيـه يـوم كمـاء المـزن رونقـه ** وآخـر كمريـر القيـد والـزردّ

الخ... وطفقت من ذلك الحين أسجل في وريقات صغيرة كل ما عنّ إليّ من خواطر الشعر إلى يومنا هذا .

وإنني من الذين يؤمنون إيماناً كاملاً بتطور العقل ونحوه يوماً بعد يوم، ولا أقول سراً اذا قلت ان كل شعر أقوله في الغد هو أجود بكثير مما قبله؛ وقد يكون للحوادث اثرها البالغ في ذلك ولو ظل العقل على ما هو عليه من يوم أن وُلِد الإنسان لكان العالم اليوم في ظلمات حالكة!!

لنرجع بعد ذلك إلى حيث كنا من الحديث الأول؛ فقد يحلو الوصال بعد الهجر، وتحيا النفوس بعودة الآمال ....!!

بعد ظهور تلك المقالة بأيام، ذهب خالي النور سيد أحمد لمدير كلية غوردون المزعومة وكان صديقه، ليسأله عن الموانع التي حالت بيني وبين القبول في الكلية. فأجابه ذلك الماكر الخبيث بقول كله دهاء ومكر؛ قولٌ، أقلّ ما يُوصف أنه دليلٌ كافٍ لسوء الضمائر الإنجليزية قال ذلك الخبيث: "ليس هناك موانع قوية ولكن من رأيي أن من الخير

أن لا يتعلم صادق أكثر من هذا القدر الذي ناله من التعليم الابتدائي". هكذا أجاب المستر اسكوت. فما كان من الخال إلا أن أخبر والدي بذلك فما توانى والدي من إخباري بهذا القول العجيب!! فثارت في نفسي ثائرة الغضب، وامتلأ قلبي غيظاً وحنقاً لهذا الكلام الخبيث؛ وهنا عرفت أن وراء الأكمة ما وراءها! عرفت أن وراء هذا الحديث شيئاً.. وإلا.. فلماذا لا يتعلم "صادق" أكثر من ذلك. وإذا تعلم ما الذي سوف يحدث؟ كل هذه الخواطر وغيرها جالت في نفسي وعلمت بعدها لماذا كره اسكوت أن يتعلم صادق .

قوّى في نفسي هذا الكلام أملاً قوياً كان يملأ نفسي منذ عهد بعيد. وزاد فكرتي، التي كنت اؤمن بها إيماناً تاماً قوةً على قوة.

تلك الفكرة كانت ترمي إلى إكمال تعليمي في مصر، لأنني لم أجد باب ألجه لأصل بعده لتحقيق هذا المطلب إلّا هي، فمكثت زهاء الثمانية شهور أحرر فيها بعض المقالات حتى إذا حان وقت السفر فجعتني المنون بموت أخي وشقيقي الرضيع الذي كنت اعقد عليه آمالاً جساماً حين يكبر. مات ذلك الأخ الشقيق الذي كنت أتوسم فيه الرجولة فبكيته بدموع حارة حتى أحسست أن قلبي أوشك أن يذوب. بكيته والله بكاءً حاراً ما عهدت نفسي تحتمل عاقبته ولكن هل يجدي البكاء وينفع؟ ولازلت أبكيه حتى هذه الساعة كلما ذكرته وهو على سرير المستشفى يبتسم ابتسامة الطفولة المرحة، ممزوجة بابتسامة الألم !! وأني أبكيه كلما ذكرت ذلك النَفَس المتتابع الذي كان يرسله وهو يقلب راسه يمنةً ويسرةً على مهاده! الصغير، كما تتقلب الأفعى على كثبان الرمال! إنني أبكيه كلما ذكرت تلك اللحظة الرهيبة، ساعة صحوت من نومي مذعوراً على أثر أصوات خافتة تجهش بالبكاء فما تبينت حقيقة الأمر حتى وجدت أخي محمولاً على ذراعيَ أمه فقمت وأضجعوه مكاني!! ألا رحمة الله عليك يا أخي الرفيق لقد جئت إلى الحياة وذهبت منها ولم تعلق بجسمك

الصغير أدرانها، ولم يتدنس بها ذلك القلب الطاهر البريء!! فعليك مني السلام ومن الله الرحمة والثواب!!

وبعد أيام من ذلك غادرت السودان قاصداً إلى مصر راجياً أن يتحقق الأمل وتصدق الأحلام!!

وحديثي عن مصر الآن، شيء غير ما فات، ولا أزال أكرر إيماني بتطور العقل فلا عجب إذا أصبحت أحس بالحياة من بعد إحساساً غير الماضي، وطفقت انظر إليها من وراء منظار عجيب !!

وهنا اثبت نص ما كتبته عن مصر وأنا ببني سويف ولعل فيها صورة حية موجزة عن تلك الحياة المضطربة الثائرة؛ وكتبتها عند قدومي إلى تلك البلدة الطيبة.

## ٤ فبراير

بعد عشرين خلت من الشهر التاسع ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين تحركت من مدينة أمدرمان في الساعة السابعة مساء حيث أخذت مضجعي في قطار السكة الحديد بالخرطوم فما حانت الساعة الخامسة والنصف والخمس دقائق قبل بزوغ الشمس حتى تحرك القطار بنا صوب الشمال يطوي القلاع والتلاع والصحاري والوهاد والغابات حتى وصل بنا صباحاً إلى مدينة حلفا حيث كانت عروس البحر "السفينة البريطانية" مرتدية أجمل حليها وأحسن ثيابها تنظر إلى الناس في خيلاء وكبرياء. فما وافت الساعة السابعة والنصف صباحاً حتى أخذت تتهادى فوق صفحة الماء كما تتهادى العروس ليلة زفافها. وفي الساعة السادسة من صباح الغد الفيناها ملقية عصا التسيار بين مروج خضراء تقع عند حافتها صحاري صغيرة تنتهي بجبال شامخات وألفينا قربها أثاراً لقدماء المصريين؛ فغادرنا السفينة وهرعنا نحو ذلك البناء الأثري. وتسلقنا جدرانه إلى أقصى قمة فيه فكان الناظر إلى الأرض يرى الطبيعة

بأحلى معانيها. يتمثل جمالها في الأشجار والأعشاب وفي النيل العذب وهو يشق سبيله بين تلك الأشجار حيث كانت ذكاء تطالع الكون بتبرها المذاب .

ثم أقلعت السفينة بعد ذلك وفي ظهر ذلك اليوم وصلت إلى أسوان ومن ثم ركبنا قطار السكة الحديد في تمام الخامسة والنصف مساء، حيث أخذ ينهب الأرض نهباً، يمر في سرعة البرق بين جبال شامخة وأحياء آهلة بالسكان، ومروج فيحاء، وجنائن غناء، وترع رضعت من كوثر النيل ماء سلسبيلا.

انفلق عمود الصبح عن غلس الدُجى وبدّد ظلمات الكون. وما أطلت ذكاء بوجهها حتى وصلنا مدينة القاهرة في اليوم الرابع والعشرين، استقللت مركبة وقصدت بها فندق " البرلمان" فوصلته في تمام الساعة التاسعة والنصف وبعد وصولي إلى القاهرة بنصف ساعة .

مكثت هناك اقضي الليالي والأيام، حتى ضاقت بي الحياة وأظلمت الدنيا في وجهي، وأبدلت اليأس مكان الرجاء وأحللت في نفسي الشقاء مكان السعادة والنعيم!! ولكن ليت شعري ما كل هذا الذي أعاني، وما الذي بعثه من مرقده؟؟ لا لشيء سوى المقادير التي تجري في العباد أن طوعاً وإن كرهاً !!

لَعِبَتْ فيَّ الأيام دوراً عجيباً، ما قصدها من ذلك إلا أن تبلو هذا الفتى في مصر بعد ان صمد أمامها في وطنه طيلة عمره. ولكنها وجدت رجلاً ثابتاً أمام الحوادث وقوة لا تلين، وإيماناً لا يتزعزع، إذا ما الزلازل ماد من هولها رضوى، وتقوضت من هولها جبال الهملايا!! فذلك الحال الذي عانيته في الفندق، وتلك الأزمات الشديدة بكل قواها، وذلك الأمل الباسم الذي قضى نحبه بين الجوانح، كل هذه الأشياء، كانت الوزارة سبباً في خلقها وبعثها. فبذلك الصدى الأول المتردد في أعماق نفسي، وبصوت العلم الداوي في أعماقها، نزحتُ من السودان قاصداً مصر، ولكنَّ مصر عبست في وجهي أول أمري عبوساً شديداً .

فكانت أولى دلائله، ذلك الأمر الذي قامت به وزارة المعارف عند امتحان للطلبة المتقدمين، رغم تركنا للمدارس في السودان من فجر أول يوم من تلك السنة إلى يوم الامتحان عينه. ولكن الحظ الذي لعب دوراً هاماً في حياتي في السودان أبى إلا ان يلعب ذلك الدور في مصر!! وفي النهاية وجدتني راسبًا في علم الحساب الذي مازلت أبغضه حتى اليوم!! فكانت في الواقع صدمة اهتزت لها نفسي اهتزازاً عنيفاً، لأن صخرة عاتية وقفت في سبيلها وعاقتها من السير. ولكن النفس التي ألفت المصائب من زمان بعيد، لا تخور قواها أمام الحوادث مهما حلت!! فكظمت مافي نفسي؛ وبعد ثلاثة أشهر كاملة. واحد وسبعين يوماً قضيتها في الفندق كلها غُصص وكلها آلام تترى، أذهب فيها إلى الوزارة وأرجع منها في غير ما فائدة بعد كل ذلك الألم الذي لا استطيع أن أقول إنه كان عظيماً؛ انقلب الحال إلى غير الحال، وتبدلت الشجون؛ إلى سرور حلو جميل. وما أحلى السرور الذي يتذوقه الإنسان بعد تجريع كؤوس الألم والتعاسة !!

وإنني لأشكر ذلك اليوم الذي أشرق فيه الأمل من جديد، يوم سافرت من القاهرة صباح ١٢/٤ قاصداً إلى مدرسة بني سويف الابتدائية إلى حيث الآمال راقدة وغدائر العلم هادئة ساكنة، إلى حيث ما تشتهي تلك النفس التوّاقة. وصلت بني سويف لأقرأ مرة أخرى في القسم الابتدائي ولكن في سبيل العلم تهون الغوالي؛ وفي سبيل مصلحة الوطن تسترخص المهج والأرواح. فإنني لا اقرع سني ندماً على تلك السنة التي قضيتها في الابتدائي؛ طالما أن الغاية، هي الشرب من منابع العلم!! أقول وصلت بني سويف وأنا رقيق الحال، ليس معي سوي رفيقين هما "عمر الطاهر" "وحوارني" وحقيبة بالية كنت أحمل فيها ملابس قد ابلاها واخلقها اليأس وباضت عليها الصروف والنوائب !!

إلى هنا تنتهي هذه السطور التي كتبتها بعد وصولي إلى بني سويف مباشرة؛ وفيها شرح موجز . ولكنه واضح . عن الحالة منذ حضوري إلى مصر حتى ذهابي إلى تلك البلدة..!!

مكثت هناك العام الدراسي كله؛ وكنت مع رفاقي الثلاثة، موضع الإكرام والاحترام من الطلبة والمدرسين. وهنا علمت أن الإنسان وحده هو السبب في شقاء الإنسان وسعادته وأن الذي يكرم نفسه، ويحوطها بسياج من العناية عظيم، لا يمكن بحال أن يلاقي من الناس ما يكره!!

انتهت السنة وبعد نيل الشهادة الابتدائية عدت إلى السودان. ثم وفي أثناء وجودي هناك فكر بعض الطلبة في إقامة حفل لإخوانهم الذين تخرجوا من المدارس الزراعية في مصر. وقد ضم ذلك الحفل رجالات البلد البارزين ومثلت فيه كل الهيئات السودانية وفي ذلك الحفل ألقيت أول كلمة في حياتي أمام جماعة من الناس..

وأذكر إنني في أول الأمر تلجلجت في الإلقاء؛ ولكني ما لبثت أن عدت إلى سيرتي الأولى من الهدوء والاطمئنان، بعد ان قرأت ثلاثة أو أربعة من السطور. ولا أسند لنفسي مدحاً ولا فخراً، إذا قلت أن تلك الكلمة صادفت قبولاً وارتياحاً من الحاضرين وعجبوا أكثر عنّ لهذا الفتى الناحل أن ينفث مثل هذا السحر الحلال..!!

مضت العطلة بخيرها وشرها، فعدت إلى مصر ثانية لأكمل دراستي في المدارس الحكومية. ولكن الأيام عبست أمامي، وقضبت وجهها، فخليت سبيلها. وكان ذلك حين أعلمني القائمون بشئون التعليم هنا، ان أوراق التحاقي وصلت متأخرة؛ فلذا قد تعذر قبولي ذلك العام فاضطررت والحالة هذه أن اكمل تعليمي بمدرسة أهلية. فقبلت بعد أن مضى من العام الدراسي نحواً من الأربعة شهور. وكانت سكناي في منزل بحي السكاكيني قرب

المدرسة عينها. وإنني لا أنسى أياماً قضيتها في ذلك المنزل إنها أيام قاسية صعبة ، ولكنها رغم ذلك لم تخل من ذكريات جميلة. وإنني كثيراً ما أجد اللذة في الألم والبؤس والشقاء. وهنا تتولد فكرة الخلاف بيني وبين المعرفة من بعض الناس.

إنني لا أنسى وأنا قاطن مع زملائي الثلاثة "بشير" و"عشري" و "البيلي" ، حال ذلك الرجل حارس العمارة يوم يشرب كأس من السلاف، ويأتي في أي ساعة من ساعات اليوم مطالباً بالأجرة، وتسديد بعض الديون التي كان يتوهمها، فلا يلبث أن يعلو الصياح والكلام فلا يمضي زمان طويل حتى تهدأ العاصفة، وتعود الحياة إلى حيث كانت من الهدوء والسكون!! ولئن غاب عن خاطري كل شيء في الحياة، فلن يغيب عني شكل العدس وطعمه، ولون السلطة وخضرتها وحمرتها. فقد كان هذان النوعان من الخضار هما الزاد الذي كنا نقتات به أياماً متوالية. ولم يلبث الحال أن انقضى بانقضاء العام الدراسي، فمضت هذه الأشياء، ولا تزال ذكراها عالقة في ذهني حتى هذه الساعة !!

وبعد ذلك رحلت إلى السودان بعد ان أسفرت النتيجة عن نجاحي في المدرسة. فقضيت في السودان عطلة جميلة نعمت فيها بلقاء بعض الإخوان وأُنسهم، ورويت فيها شوقي للأهل والوالدين. وفي هذه العطلة أيضا قمنا بتكوين (جماعة الطالب) التي كان أساسها في مصر في النادي السوداني، ولما لم تكن النفوس في هذا النادي صافية أتممناها في السودان وذكرت عنها الصحف شيئاً كثيراً، وهي لاتزال طفلة ناشئة فقام بعض الإخوان من الطلبة بمناوئتها، ولكنه كان عبثاً لا طائل من وراءه. وفي النهاية تركناها، قبل أن تبدو ثمراتها للعيان لأن بلداً فيه السكسون لا تنفع فيه ثمرات الرجال إلا اذا قضينا عليهم وما ذلك ببعيد !!

ثم بعد ذلك غادرت السودان للمرة الثالثة. فوصلت مصر ومكثت في فندق البرلمان مرة أخري مرتقباً ما تفعله الوزارة في القبول بمدارسها الأميرية. وفي أثناء ذلك فكر الطلبة السودانيون الذين كانوا خارج النادي ان ينضموا إليه جميعاً ويدخلوه إن طوعاً وإن كرهاً. فعقدوا لذلك اجتماعاً عاماً ضم أغلبيتهم، وعرضوا فيه بعض الآراء وألقيت فيه كلمات بليغة وقصائد رائعة، واذكر إنني ألقيت قصيدة لأول مرة في حياتي ولا بأس من أن أقول إنها أعجبت السامعين، من غير الحاسدين!! وبعد أيام من ذلك أسفرت نتيجة الوزارة عن قبولي بمدرسة حلوان الثانوية. وهنا فقط زال ذلك الكابوس الذي ظل مخيماً طوال ذلك الأمد السحيق.

فانتظمت في الدراسة من أواخر أكتوبر عام ١٩٤٠م بالسنة الثانية وظللت كذلك حتى موعد العطلة الصيفية، وأذكر قبل ذلك إنني نظمت سلسلة محاضرات عن السودان ألقيت جزءاً منها بقاعة المحاضرات بالمدرسة وجاء المولد النبوي، فألقيت كلمة تناسب المقام في الليلة الأخيرة منه، فنالت في تواضع واحتشام الجائزة الأولى وهي كتاب محمد للدكتور (هيكل).

أقول حانت العطلة الصيفية، فمكثت في المدرسة أنا وزميلي عمر طاهر أياماً بعد انتهاء الدراسة وفي ذلك الأثناء جمعت كل الأوراق التي كنت انظم فيها الشعر، وأودعتها كراسة واحدة. بتاريخ نظمها والفصل فيها للأسبقية. فكانت في الواقع فكرة لابأس بها ولا أزال محتفظا بهذا (الديوان) إن صحت تسميته كذلك. وقد يكون في الأيام من بعد حافز، يلهمني من القريض، ما به استطيع تسجيل الخواطر وللخواطر في بعض النفوس معنىً جليل..!!

وحلوان هذه، بلدة صغيرة جميلة هادئة بالغة حد السكون تبعد عن القاهرة بنحو ٢٥ من الكيلومترات جنوباً، ويصلها قطار الديزل الذي يقطع هذه المسافة في نصف ساعة بأجر قدره قرشان. تحتضنها من جهة الشرق تلال المقطم؛ وهي واقعة على سفوحها ويبسم لها من الشرق ماء النيل الذي يجري منحدراً إليها من ربوع السودان الحبيب. وقد خص الله هذه البلدة بينابيعها المتفجرة، وعيونها الساحرة، المتدفقة.. بلد سحر حلال، وروعة وجمال. تشبه مدينة الخرطوم في كثير من أحوالها!! هذه صورة صغيرة عن هذه البلدة فقد تجور الأيام وتنمحي هذه الأثار؛ ولكن هذه الصورة ستبقي لها رمزاً وذكرى..!!




سافرت إلى السودان مرة ثالثة وقضيت فيه عطلة جميلة لا غبار عليها. والواقع أنني نشطت في الكتابة الصحفية هذه المرة نشاطاً محسوساً. ثم لما أروت النفس غليلها ممن أرادت رؤيتهم وشُفِيَت اوآم الشوق للأهل والأصدقاء، وبعد ان طبعتُ على وجنتي الوطن قبلة حارة ساخنة، تركته وأنا باكي العينين كليم الفؤاد. ووصلت مصر للمرة الرابعة، وواصلت دراستي بمعهدي القديم. وفي هذا الأثناء قمت ومعي أربعة من زملائي بإصدار مجلة بالمدرسة اسميناها "صوت الشباب" وهي نتيجة لفكرة جاشت بالنفس من قبل وسعينا في تحقيقها حتى تم لنا ما أردنا. ولكن المدرسة حين شعرت بتقصيرها في إصدار مجلتها التي

سكتت عن إصدارها نحو العامين وجدت في هذا العمل الجليل صوتاً داوياً أيقظها من ذلك السبات العميق فلما تبين لها خطؤها الجسيم، وتقصيرها المشين أرادات أن تغطي عليه بأن تخبرنا بأن المدرسة على استعداد لتحمل مشقة العناء بإصدار المجلة وهي في ذات الوقت تشكرنا على هذا العمل الجليل وما كنا والله في حاجة للشكر ولا الثناء! وأرادت المدرسة ان تفعل ذلك على ان نكون نحن أعضاء في تحرير المجلة المدرسية فظللنا كذلك ننتظر الوقت الذي تمتد فيه يد المدرسة إلى خزينة النقود لتدفع قيمة إصدار المجلة ولكن الحال ظل على ما هو عليه قرابة الشهرين والنصف .

وفي هذا الأثناء تبينت لي نفوس بعض المدرسين في أوضح معانيها تلك النفوس التي كنت اعتقد تمام الاعتقاد، بأنها أنقى نفوس وأطهرها، وأبعدها مما يشوب النفوس من أدران الحقد والحسد. فسقطت بذلك قيمة المدرس في عيني مهما كان شأنه لأن الذي يُربِّي النفوس خليق بان تكون نفسه مثالاً يحتذى في النزاهة والعفة؛ وأما وقد تبينت لي هذه النفوس على هذه الصورة العجيبة فلا أرى حائلاً يحول بيني وبين أن أعلنها لا هوادة فيها ولا لين على الناس مهما كانت طبقاتهم وان أكون منهم على حذر في كل طرفة عين لأنني وجدت بكثرة التجارب الناس يعيشون مع بعضهم بالخداع والرياء. وان ما يبديه اللسان وتظهره الأسنان يخالف تماماً ما تضمره النفوس وتُكِنُّه الضمائر، أقول انكشفت لي نفوس بعض المدرسين وأخذت غيرهم بذنبهم لأنهم كانوا عندي مثالاً أعلى يحتذى به. ولما ساء ظني بهم فلا مراء من ان يكون الذين أشكُّ فيهم أسوأ حالاً منهم وإن كان بعض الناس يخطئون هنا الحكم!!

فحدث في أثناء تكوين أعضاء للمجلة إن كان يراقبها أحد المدرسين، ولكن إخوانه حسدوه على ذلك "المنصب" فتهافتوا ليكون كل واحد منهم هو المراقب العام عليها. إزاء

هذه النفوس الضعيفة لم أتمالك نفسي من إعلان سخطي وعدم تمكني من العمل وسط هذا الجو الصاخب المكفهر!! فخليت سبيلهم وفي نفسي عن الناس أفكار عجيبة !! وإنني ما أسفت في حياتي على شيء مهما كانت نتيجته عكسية إذا كان في تلك النتيجة درس للأيام المقبلة !! وكذلك الحال في مثل هذا العمل، فكان خليقاً في أن أقرع سني ندماً وأسفاً وتحسراً على عدم صدور تلك المجلة التي هي من وليدات الفكر. ولكن الدرس النفيس الذي تلقيته واستفدت من وراء ذلك كفاني وأغناني عن الندم !!

أخذت الأيام تمضي بعد ذلك وقد استولت عليَّ أفكار عجيبة وألهمتني الحوادث معنىً للحياة والناس، لا أخال احد من الناس وقف عليه إلا القليل من أبناء الزمان الماضي. ومن هنا، حدث للفكر تطور عجيب، وما أثمن سمو الفكر إلى الطبقات العليا، إذا كان ذلك على أكتفاف الحوادث، ومعنى الحياة والناس !!!

ما كنت أفكر في يوم من الأيام إنني سأبغض وسائل العلم . ولا أقول العلم ذاته . ولكني كما ذكرت سابقاً ولا أزال أذكر، إنني اؤمن بالتطور العقلي، وسنة الارتقاء. فربما كان هذا الفكر الشاذ المدى أحمله، ينساب في سرعة البرق باحثاً عن مكان يصل إليه، فما وجد حتى هذه الساعة وهو في مضيه هذا، لا ينحدر إلى أسفل قط، بل يظل سائراً صعداً حتى يصل إلى غاية ومن هذا السبيل الذي يسلكه، تلاقيه تلك الوهاد فيتخطاها بسرعة البرق، والنجود فيصعد إليها، من هنا فقط نجحت هذه الأحوال القلقة ، والأفكار العجيبة التي تساورني بين كل ساعة وأخرى ولم أكن في ذات الوقت أعرفها فيما مضى من الزمان..!!

لا أقول إنني متقلب في أحوالي بالمعنى الشائع بين الناس. فربما كان تقلب البعض كتقلب الأفعى من الهجير؛ ولكني أفعل ذلك عن قصد لأصل إلى غاية. فالحياة التي تسير على وتيرة واحدة لا تغيرها، هي حياة مفعمة بالسأم والملل؛ أقول ما كنت أعتقد إنني

سأبغض سُبل العلم في يوم؛ ولكن الأيام أرغمتني على ذلك؛ وهذه السبل عينها هي التي كانت أقوى دافع يحفزني لهذا البغض. فهذه النفس الحساسة التي احملها كثيراً ما يؤثر فيها مر النسيم العليل الذي يداعب وجنات الزهور في حنان ورفق !! هذه كلمة أقولها لأخرج بعدها إلى قصدي الذي بدأته بقولي ما كنت اعتقد إنني سأبغض سبل العلم؛ أجل والله ماكنت أعتقد ذلك؛ ولكن الذي رأيته في المدارس شيء عجيب. والنفس التي ألفت العز والكرامة والشرف هيهات أن تستكين في يوم من الأيام للذل والاهانة والصَغار. فمن ذلك ولا أقول حتى هذه الساعة أن إساءة مهما كانت بسيطة لحقتني من أحد في محيط الدراسة لأن الذي يكرم نفسه يندر أن يلحق بها أحد أذي أو ضراً إلا إذا كان غراً جاهلاً فمن ذلك إنني أصبحت أرى أن هناك فرقاً شاسعاً بين كوني خارج المدرسة وداخلها. ففي الأول أري إنني رجل له كيان، وله سطوة وشخصية في كل هذا الجسم الناحل الهزيل. وهذا واقع لا محالة وفي الثانية أرى ان هذه الأشياء تكاد تنعدم. وذلك نتيجة لمحاولة المدرس أشعار الطالب أنه طالب. ومادام كذلك، فلا مركز له في المجتمع؛ ولا أثر له في الوجود!! هذه الأشياء فوق ما فيها من الاحتقار والذل، تبعث في النفسِ الخور والجبن والشعور بالنقص. ونفس هذا حالها وهي في عهد الصغر لا يمكن ان يرتجى منها نفع وقت الكبر. فالمدرس الذي يتطاول حتى يقطع تلك العلاقة المتينة التي يجب ان تكون موجودة بين الطالب وبينه، مدرسٌ مجرم جدير بالرجم والإعدام!! وأمثال هذا كثيرون .

لا أقول أن هذه الأشياء حدثت لي بالفعل؛ ولكنها شائعة في البيئة المدرسية؛ والخوف من تطاير الشرر المنبعث منها!! وأن الذي أحسَّ بالحياة ومعناها، ومارس الناس وعرف مدى وفائهم، وساير الحوادث في بؤسها ونعيمها، لا يمكن أن يحمل بين جنبيه قلباً يحمل الإساءة مهما دقّت وصغر شأنها!!

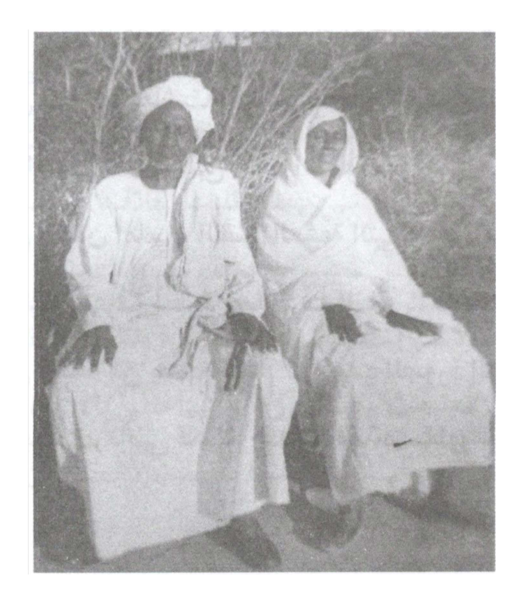
هذه كلمة عابرة مرت بخاطري فسجلتها . وربما كان فيها حديث صريح . و كثيراً ما يغضب الناس، الصراحة في القول. ولكن ذلك لا يساوي شيئاً إزاء إرضاء النفس الكبيرة !!!

ولا أرى وازعاً بعد حديثي عن الحياة والناس أن أقول كلمة عن أخ وصديق أقلُّ ما يُوصف به أنه أخ وصديق. فقد صاحبت الناس وبلوْتُهم وعرفتهم، فما وجدت فيهم في النهاية إلا الغدر والخيانة والمكر .

كل تلك الأشياء تحدث ولكن في تستر وتكتم. وعرفت تماماً أن المجاملة بين الناس هي كل الصلة التي تربط بينهم وأن الإخاء والمودة والصداقة ماهي إلا ثياب مستعارة يُلبِسُها الناس بعضهم البعض، ثم يخلعونها بعد حين طال أو قصر ولكني لا أنكر قط إنني وجدت بين هؤلاء الأدميين من أستطيع أن أسميه صديقاً وأخاً هو الصديق "صلاح عثمان هاشم" إذ وجدتُ فيه نفساً كنفسي تتألم كثيراً لهذه الأوضاع العجيبة، وتنظر إلى الناس نظرتي إليهم ووجدت فيه مزاجاً لا يختلف عن مزاجي في شيء فهو يثور على النظم الإنسانية المغلوبة ويحتد كلما جمع الحديث بينه وبين الذين لا ينظرون إلى الحياة إلا بمنظار يخفي عنهم كل شيء!! وعرفت فيه نفساً طموحة نالت من الثقافة قسطاً وافراً وتحررت من قيود النفوس الوضيعة فعاشت في سماء صحو لا تشوبه شائبة. هذه النفس التي خلقت هذا الفرد؛ أوهذا الفرد الذي خلق هذه النفس هو الذي كنت أُنقِّب عنه كثيراً وكثيراً. فوجدته يوم أظلم الكون أمامي، النفس المُشِعّة التي ضاقت بالناس والحياة ذرعاً!! فاتخذته صديقاً بالمعنى الذي أعرفه أنا، لا بما يعرفه الناس!! فأحللته من نفسي مكاناً لم أحلله أحداً من قبل، ولن أحلله من بعده أحداً. لأن هذه الصورة التي وصفتها لا يمكن أن أبحث عنها من بعد؛ وإن بحثت، فإنني قد لا أجدها. فهذه سطورموجزة عن هذه النفس

التي لا أفرق  بينها وبين نفسي في شيء. وقد يكون لهذا الصفاء الروحي في مستقبل الأيام شأن عظيم لو كان في العمر بقاء !!

ندع هذا الحديث لنكمل بقية هذه الأيام فلم يبق من بعد إلا إنني قمت برحلة إلى المحلة الكبرى حيث صناعة المنسوجات. هناك بكت عيني بكاء شديداً حين رأت تلك العظمة المتجلية، وذكرت السودان وهو لا يزال طفلاً يحبو!! لقد استطاعت مصر أن تخلق لنفسها مركزاً سامياً بعد أن لاقت من عسف الإنجليز وبطشهم ما يبعث الشفقة والرحمة. واليوم يعاني السودان من هؤلاء الأوغاد ما يعاني، ولكن في صورة أقل من التي تمثلت في مصر. وسوف يتحرر من ربقتهم ويحتل لنفسه مكاناً سامياً بين الأمم فالصناعة في تلك "المحلة" قائمة على قدم وساق فالأقمشة مع اختلاف أنواعها والحرير والصوف والملابس المتنوعة كل هذه الأشياء استطاعت مصر أن تستغني بها عن الخارج. ذكرت السودان في تلك اللحظة، فما استطعت أن أمسك نفسي من البكاء فبكيت فصبراً أيها الوطن الغالي فإن غداً لناظره قريب !!.



**ـــ : وبعد : ـــ**

فهذه هي أهم الحوادث التي أذكرها منذ كنت أذكر أول يوم في الوجود ولا أرى أن هناك أبرز منها في حياتي. فكتبتها حسب حدوثها لا تأخير في بعضها ولا تقديم. ولئن كنت أكتبها منذ حدوثها يوماً بعد يوم، لما خالفت هذا الموضع الذي به أسجلها اليوم، وإن اختلفت في الأسلوب!! وبعد ذكر هذه الحوادث في شيء من الإيجاز الذي لا يخل في جوهر الموضوع ، نسدل الستار على الماضي بخيره وبشرّه، لأفتح بعد ذلك صفحة جديدة من سجل الأيام المقبلة. لنرى كيف تسير الحياة من بعد ..!! وسيكون تسجيل الحوادث في اليوم الذي تحدث فيه، كلما سنحت الفرصة بذلك فوداعاً أيها الماضي، لا وداع نازح سينساك ولا هاجر يجفوك، لكنه وداع فتى مازال يحمل بين جنبيه قلباً يحفظ الجميل والصنيع، ويَكنُّ لك بين ضلوعه الولاء والحب. فلولاك أيها الماضي، مأحدْثت نفسي بأن أكتب شيئاً ولولاك ما كنت أنا في مثل حالي اليوم.

فأنت وحدك نزَّلت عليَّ وحي الآفاق النائية وبعثتَ في نفسي روحاً جميلاً ظلت تداعبني حتى حملتني إلى تسجيل هذا الحديث كيف أنساك أيها الماضي وفيك العبر وفيك الصور !!!

كيف أنساك ومنك استمد القوى واستلهم وحي الحاضر وأمل المستقبل ؟ إنني لن أنساك ما بقي الوفاء في قلوب الأوفياء .

فوداعاً ... وداعاً أيُّها الماضي السعيد!! يا ملهم الحاضر وأمل المستقبل!!.. وداعاً يا باعث الحياة والنور في جوانح نفسي وسلام عليك أيها المستقبل الرابض في مرافئ الآفاق السحيقة.

سلام ... عليك ... يا أملي الجديد.!!!

**٧ فبراير**

**غمرت مصر بين الأمس واليوم موجة عجيبة من أمواج خضم الحوادث. وهكذا لا يمر يوم بها إلا ورأينا فيها عجباً ... ويقولون فيما يقولون عش رجباً تر عجباً ولكني أقول عش بمصر يوم واحداً، تر عجائب الحياة في كل وضع من أوضاعها!!**

**استقالت الوزارة القديمة في مثل هذا الظرف العصيب الذي تجتازه البلاد! استقالت تلك الوزارة والناس أوشك أن يؤدي بحياتهم الجوع لإنعدام رغيف الخبز. استفحل أمر الأزمة حتى بدت دلائل الثورة بين أفراد الشعب. أقول استقالت تلك الوزارة التي كانت تعرف من أين انبعث شيطان الجوع ولكنهام رغبة في مداراتهم سكتت على كل فعل يقوم به أولئك الأنذال. كانت تعرف تماماً أن الإنجليز هم مصدر هذا السوء الذي حاق بالبلاد. وما زالت تتستر على هذه الفضائح التي يرتكبونها، حتى قيض الله لها ان تستقيل، فاستقالت. ولبثت البلاد أياماً كالسفينة في بحر متلاطم لا يديرها ربان، بل تتقاذفها الأمواج من كل جانب حتى ألّف الوزارة رئيس الوفد. وظلت الاجتماعات عند المليك ساعات متتالية ،حتى جاءت ساعة خطرة أمر فيها النحاس بتأليف الوزارة.**

**يؤسفني كثيراً ويبعث الأسى في نفسي ذلك الدور الذي أبى الإنجليز الأنذال إلا أن يمثلوه في مثل هذه الظروف ولكن لا لوم على المحتضر وهو في النزاع الأخير!!!**

**حدث، وأقول هذا والألم يحز في نفسي، حدث في اليوم الرابع من هذا الشهر، أن ذهب السفير الإنجليزي ومعه قائد قوات المجرمين السكسون يصحبهم ثمانية من الضباط من فصيلتهم وداهموا القصر الملكي، وبإحدى دباباتهم التي استطاعوا أن يفروا بها من الألمان، ضربوا الباب الحديدي للسراي وكسروه ودخلوا. وفي أثناء ذلك طوقت القصر دبابات كثيرة وجنود لا حصر لها، كما طوق الجيش المصري في العباسية. ثم ارغموا**

الحرس الملكي على التسليم فسلم سلاحه. ودخل هذا المستبد الغشوم (مايز) القصر وقال في لهجة عجيبة باللغة الإنجليزية " أين هو " قال ذلك للباور السوداني الذي أوشك أن يفتك بهؤلاء الأغنام بضربة من مسدسه ولكنه فكر في العاقبة وفي الخطر المحيق بالقصر دخل هؤلاء الجماعة على الملك كما تحدثنا بذلك الأقوال المتضاربة القوية، وبسطوا بعض المطالب منها أن يؤلف الوزارة النحاس أو أن يؤلفها الملك على أن يرضى عنها النحاس. والغرض من ذلك كما ظهر أخيراً أنهم يريدون أن يأمنوا جانب الشعب من القيام بثورة ضدهم، حين يرأس الحكم رئيس الوفد لإلتفافهم حوله .

انتهى هذا الحادث العظيم في ليلته وما كاد الليل ينشق عن ضوء الصباح، حتى طار الخبر في كل مكان، ووقع على القلب وقوع الصاعقة على الهشيم، فزاد البغض، واشتدت الكراهية، وقامت جماعات الطلبة والعمال في كل مكان يهتفون بحياة الملك وبسقوط الإنجليز فأعجبتني كثيراً هذه الروح السامية التي تمثلت في صياحات الازدراء التي وهبوها للإنجليز.

هذا حادث لا أستطيع أن أُعلق عليه بشيء ولكن أقلّ ما يمكن أن أقوله هو أن الإنجليز لا يُستغرب أن يحدث منهم ما حدث. لأن القلوب السوداء والضمائر الغافية التي يحملونها، كفيلة بأن تزين لهم أمثال هذه المهازل التي يمثلونها، والفضائح التي يرتكبونها!! فتعساً لهم ولأيامهم السوداء التي مازالت تخيم على الكون كما يخيم الغراب الأسحم في الدرواس والأطلال .

وما كادت تبدو شمس الصباح في هذا حتى احتشد طلبة المدرسة في الطريق واضربوا عن الدراسة احتجاجاً على هذا الفعل المشين، مهنئين الملك بسلامة النجاة من مخالب هؤلاء البرابرة الإنجليز!!

فطافوا في نواحي المدينة بين الهتافات العدائية، ضد الإنجليز وبين هتافات حياة السودان ومصر حتى استقلوا قطار الديزل ووصلوا أمام القصر الملكي يهتفون بحماس شديد وهناك أمام القصر، ألقى بعض الطلبة كلمات تناسب المقام، وألقيتُ قصيدة؛ وكانت ساحة عابدين مكتظة بالحشود الكثيرة التي أتت من كل فج عميق !!

وعاد الطلبة بعد ذلك إلى حيث سمعنا كلمة جميلة ألقاها النحاس من شرفة وزارة المالية، ورمز فيها رموزاً قاسية ضد الإنجليز ولوح فيها إلى ما تعانيه البلاد اليوم من الأزمة الشديدة التي سببها الحاكمون قبله، ممن لا ينظرون إلا لمصالحهم الشخصية. وانصرفنا بعد ذلك حيث عدنا مرة ثانية إلى حلوان والإعجاب يملأ نفسي من تضافر الشباب وقوته وعزمه وحزمه .

أمام هذا الذي رأيته اليوم من تكاتف هؤلاء الشباب أصبحت الشباب إذا سدد سهمه نحو غاية من غايات الحياة، لا يمكن أن يثنيه عنها عائق من عوائق الدهر! وإلا، فأين تلك السطوة التي ألفها الطلبة في زمن الدراسة من المدرسين وشيخهم ؟ أين تلك القوة التي كان يفرضها عليهم غيرهم فرضاً؟ إنها تكسرت بلا شك على صخرة عزم الشباب، وتلاشت أمام صيحاته الداوية التي تهتز لها الجبال الشامخات !!

وهنا حانت في التفافة إلى الجنوب رأيت فيها السودان مصوراً في أعماق نفسي وقلبي. وذكرت ذلك الركود والجمود اللذين يغمران كل نواحيه، فبكيت بكاءً مراً وأنا ابتسم ابتسامات عجيبة لأغطي بها الدمع الهتون !!!

إن في السودان شباباً أبيّاً لا يقبل الضيم ولا يرضى الهوان. ولكنه شباب يجهل نفسه في ذات الوقت. وإن هو ظل على هذا الحال من الجهل والاستكانة، فقد تكون النتيجة عكسية مقرونة بالويل والثبور. فالشباب هو القوة الفعالة التي تعمل دائماً على أيقاظ الأمة

من سباتها؛ وتعمل دائماً على بعث الشعور الحيّ في النفوس الميتة التي أَلِفَت المهاد فنامت !!

فليت شعري، إلى متى يقف شباب السودان مكتوف اليدين والفرصة سانحة لوثبات الشباب التي لا ترد ؟ متي يا ترى يعرفون ان في السودان أعداء أَلِدَّاء، وأن في أصول دوحة الوطن سوساً ينخر في أعماقها ؟

إن السودان في حاجة لانقلاب لا قِبَل له به. والشباب وحده هو الذي يعمل على تحقيق هذا المطلب. فمن العيب الفاضح الذي لا يُمحى، أن تشترك فتيات مصر في إظهار شعورهن وتذمرهن من هؤلاء الدخلاء، ونبقى نحن هكذا من غير أن نُبْدي حِرَاكاً، كأننا لسنا من الأحياء في شيء ؟ أو كأننا لا نحمل بين جنوبنا تلك النفوس الأبية التي عُرِف بها السوداني في كل مكان ؟؟

## ٨ فبراير

خلعت شمس هذا اليوم عن نفسها العذار، وبانت لنا عن صباح مشرق جميل، أخذ يتفتح رويداً رويداً كما تتفتح الوردة اليانعة في الأكمام ؟؟

مضيت كعادتي إلى المدرسة؛ ودخلت كعادتي مقر الدراسة وفي نفسي عنها أحاديث وأشجان!! وجعل اليوم يمضي حثيثاً؛ حتى إذا قاربت الدراسة الانتهاء؛ ثارت في نفوس الشباب من الطلبة ثورات عنيفة، أخذت تتأجج نيرانها في نفوسهم حتى بدت في أضرابهم عن العمل احتجاجاً على فصل أحد الطلبة من الدراسة؛ وما أخمد هذه النيران إلا اعتذار الناظر بأنه لم يفصله ولكن بعث به إلى البيت ليأتي بوالده؛ وذلك لأنه قابله بالأمس ساعة أضرب الطلبة كلهم وسأله عن اسمه فأبى أن يُعرِّفه به؟

وانصرف الطلبة إلى مقرهم؛ وفي نفسي لهم أعجاب شديد بهذا الروح القوي، الذي ما عهدناه فيهم من قبل والذي ظل منطوياً في نفوسهم زماناً طويلاً،، حتى شككت في رجولتهم بالمعنى الواضح .

فمتى يا وطني أجد فيك شباباً يثور على كل النظم الموجودة فيك؟ لأن كل وضع من أوضاعك يدعو إلى الأسى والحزن. وليس أدلُّ على ذلك من هذا الموضع الشاذ المتمثل في الحكم المشترك فيك.

متى يا وطني أجد في كل نفس من نفوس أبنائك شعلة متقدة يتطاير منها الشرر ليسقط على قلوب الدخلاء فيصرعها!!

متى أجد فيك شباباً، وقد ثارت الفتيات في المدارس وأخرين عن العمل حين ساءت الأمور في سبيل ما لا يرضيْنه؟.

هناك ياوطني في نفوس بعض الشباب سهام جاثمة في كنائنها وسوف تنطلق في سرعة البرق حتى تستقر في أهدافها. ولكنهم رغم ذلك قليلون! ولكن من يدري، فقد تثور الهمم في غدٍ ويمضي أبناؤك في طريق المجد، حتى يروك في هام الثريا!!

أرخى الليل سدوله، وذهبت لاستذكار الدروس "الإجباري". وفجاءة استولى عليَّ شعور عجيب وكثيراً ما يحدث هذا الشعور من غير سبب ولا دافع. فأغضب وأثور؛ وأظل انظر إلى الناس في سخرية واستهزاء، وفي حنق وغضب، فتتلاشى قيمتهم في نفسي حتى لا يبقي فيها أثر. وقد أعلل هذا بتكاثر الهموم والأفكار التي مازالت تحتل أكبر جزء من نفسي وعقلي، حتى أوشكت ان تودي بحياة هذا الجسم الناحل الهزيل .

إن هذه الأفكار لا ترحمني ولا تأتيني متقطعة حتى آخذ لها الحيطة ولكنها تندفع اندفاع السيل الجارف، وتتساقط تساقط الجليد من قمم الجبال فتجد من نفسي حصناً

حصيناً وسداً منيعاً، وحائلاً لا يردع لسطوتها وقوتها. وبين هذه القوة وتلك المقاومة، ينحدر الجسم نحو هاوية من التَّعَب والمشقة فهل تراني أقول المحال إذا قلت أن هذا الحال لو دام على ما هو عليه، لأصبح هذا الجسم أول ضحية أذبحها قرباناً أمام دير الهموم والأفكار ؟ ليس ببعيد ان يحدث ذلك واكثر منه.

إنني جد متعب من هذه الأفكار المتزاحمة. وكثيراً ما أغبط، بل كثيراً أحسد الذين في مثل سني، على ذلك القلب الخلي الذي يحمله كل واحد بين جنبيه ولكني لا ألبث حتى أرسل ابتسامة قصيرة قليل من يعرف معناها!!

أجل والله أرسلها ابتسامة صافية، ولكنها تتلاشى عند ساحل الأبدية، حيث لا تستقر إلا ابتسامات النفوس الأبية التي تكون ضحية هذا الفكر وهذا الإباء !!

الحياة بلا عقل كالمصباح الخافت الذي نضب زيته، وأخذ يضعف قليلاً قليلاً حتى ينطفئ في النهاية، وتحترق فتيلته!! ولكن، ما أتعب الذين يحيون بلا عقول!! وما أشقى الذين تكبر عقولهم قبل أجسامهم!! فإذا مات العقل مات في الإنسان الإحساس والشعور، وإذا مات الإحساس تبعته العاطفة ومضى في سبيله الضمير والوجدان فتكون الحياة بعد ذلك ضرباً من ضروب العبث والبؤس !!

وأما الذين تولد عقولهم، قبل أن يولدوا فهؤلاء أتعس خلق الله في نظري، لأنهم يرون دقائق الكون أوضح من الشمس؛ في حين لا تبدو أمام الناس الخطوب!! وقوم هذا حالهم، وهذا نصيبهم من العقل وبُعد النظر، لا شك أنهم يملكون أرقَّ شعور عرفته الحياة.. ومن هذا يبدو جليّاً مِن أين تنبعث آلامهم، وتتكاثر همومهم، وما بعجيب أن يتبعوا أبد الدهر في أخذ ورد بين الحياة وبين نفوسهم وهم الذين مُنِحوا شعوراً إذا مَسَّته نسائم السحر أحدثت فيه الكلوم !!

**٩ فبراير :**

ذهبت عن نفسي أشباح الهموم التي لازمَتها بالأمس، حين بدّد نور الصباح ظلام الغلس وبدأت حياة المدرسة تسير سيرها، وهل حياة المدرسة إلا أدوار تتكرر وأيام تجئ ولا فرق بينها وبين سابقاتها !!

ذهبت عن نفسي شجون لازمتها بالأمس وبقيت ملامحها بادية على وجهي كما تلوح آثار الداء العياء، على مريض قد قارب الشفاء! يقولون لي أنت تطيل التفكير كثيراً، وتحيل الطرف في نواحي عدة، تلتفت إليها فما ترى فيها أثراً لشيء!! فهل أنت يا فتى أنت عاشق ؟ أم في قرارة النفس ما لا نراه !؟

وجوابي لهؤلاء الذين اشفقوا على هذا الجسم الناحل من أن يكون ضحية الفكر، حنانيكم يا رفاقي... البحر قد يثور وتتلاطم أمواجه، ويقسو على من بظهره، والبحر قد يهدأ ويسكن حتى تبدو عليه سيماء الحلم، فهل تغيَّر مافي أحشائه من در ومرجان أم تبددت صخوره العاتية الكامنة في جوفه!!؟

إن النفس الكبيرة قليل من يدرك ما في أغوارها، فخير للسائلين عنها؛ أن يقنعوا بهذا الشعور الطيب الذي يوليهم إياه هذا الفتى!! أنا لا استطيع أن أعطي الناس أكثر من المجاملة وهذه في الحقيقة أكبر هبة يمنحها الفرد للمجموعة أو للفرد مثله. فاذا توفرت هذه الهبة بمعناها الكامل، فقد استطاع الواحد أن يعطي خيراً كثيراً .

هذه كلمات أقولها حين فاضت الكأس وأترعت، فتداعت هذه الأحاديث في سكون جميل، وتدفقت فوق صفحة الطرس وقد تفيض هذه الكاس الدهاق في غدٍ وبعد غد، وفي المستقبل القريب والبعيد لو كانت الأعمار رهينة بالبقاء في دار الفناء ...!!

لم يحدث في هذا اليوم شيء ذو فائدة كبرى فلا غضاضة اذا تركت القلم إيثاراً لراحته واستجمامه من عناء القول فالغد وحده كفيل بكشف الحوادث ورفع الستار عن مخبآت الأقدار ...!!

## ١٢ فبراير

يوم تلاه يوم، ولم أخط سطراً على صفحات هذا القرطاس، وساعات تمضي مضي الأمل في القلوب الواجفة، وأنا أحاول أن أكتب شيئاً، ولكن الأيام أبت عليّ ذلك. ورغم هذا فلا أزال اذكر هذين اليومين ذكراي لهذا اليوم الذي أنا فيه .

خرجت أول من أمس وذهبت حيث كنت أذهب كل يوم، ذهبت واليأس يملأ نفسي، والسخط من الدنيا لا يدع مجالاً لشيء سواه وفي قرارة نفسي ألم شعرت به في معدتي، من أثر انقباض حدث فيها؛ ولكنه زال بعد أورثني النكد، وأخذ اليوم يمضي حتى حانت ساعة من ساعات دراسة الدِّين ومنها طرقت أذني كلمة سمعتها من أحد الأساتذة في مجر حديثه، وفيها يقول نحن نعمل فنصيّر كل شيء طعاماً. وقفت كثيراً بجوار هذه الجملة، واطلت من حولها الوقوف، وخرجت فيها بعد ذلك بأثبات معنى كان يجول في نفسي زماناً طويلاً وحتى يحين الوقت لإظهاره سوف أُبديه!!

حلّ المساء، فرأيت بعضاً من أخواني الطلبة السودانيين ينادون باجتماع يبحثون فيه أمراً من الأمور. وعجيب والله أمري مع المجتمعات؛ فإن لم يكن من الدنيا عدو يناصبها العداء لكنت أول من جرد من غمده الحسام وانتضى لها السيف! وكيف لا أكون كذلك، والسنين الخوالي تشهد على أن كلمة "الاجتماع" يفهمها السودانيون بمعنى "التفرق"؟!

انعقد جمعهم وتحدثوا عن مسألة محو الأمية في السودان فيا عجباً! لوطني يدلونني، ولخدمته يرشدونني، وأنا الذي أشهد على نفسي بأنني وهبتها في سبيل هذا الوطن

الحبيب !! ألا تَعِسَتْ حياتي لو غفلت نفسي في ساعة من ساعات الزمان عن واجبها نحو الوطن!!

وسحقاً لك أيها القلب اللجوج، لو تحولت عن عهدك وحبك ووفائك لهذا الوطن العزيز!!

وأنت أيها الضمير الحيّ، لا كنت مني، ولا كنت منك، لو تهاونت في تأنيبي وزجري في أيِّ لحظة أجني فيها على وطني بتقصيري في أيِّ واجبٍ يفرضه عليّ !!

وبعد؛ دام التقاسم وقتاً وانتهيتُ معهم على أن يخدم كل فرد منا وطنه. فهذا واجب يتحتم على كل واحد منا على أن تكون هذه الخدمة تحت إشراف الضمير، لا تحت إشراف سلطة أو هيئة. وإنني أرى أن الإجرام كل الإجرام في التواكل والتواني عن القيام بهذا الواجب. على أن هذا لا يمنع بحال من أن أقول أن من الإساءة وسوء المعاملة والحط من قيمة الإنسان، أن يُرشِده أحد من الناس على أداء واجب أو خدمة وطن !!

هذا هو الدستور الذي أسير عليه. وأضيف عليه عدم إيماني بالجماعات في القيام بواجبات الوطن. وكل ما اؤمن به هو عمل الإنسان منفرداً لأن النية إذا خلصت عند كل فرد، تكونت من هذه الأفراد، جماعات عاملة، تسعى لخدمة مبدأ أو تحقيق مأرب ينصبُّ خيره في صميم البلاد. هذا هو الرأي عندي في هذا الشأن ولا رأي لي فيه سواه !!

إنتهى الجدال في هذا الموضوع، وتركناه على أن نعود له مرة أخرى فربما جدَّت فيه فكرة أو حدث من أجله طارئ. ولكن هل تتحول الشمّ الرواسخ عن مقرها؟.. فأنها إن فعلت فإني لا محالة فاعل!!.

وذهبنا بعد ذلك إلى حيث شاهدنا حفلاً أقامه أشبال كشافة المدرسة، أحيوا فيه ليلة جميلة، أفعموها بالأغاني الشجية والأزجال القوية، وبعض الألاعيب المسلية وانفضوا في هزيع من الليل، وبذلك اسدل الستار على هذا اليوم .

وانتهى الليل فجاء الصباح ...!!

وكان صباح يوم ميلاد الملك فاحتفلت البلاد احتفالاً رائعاً. ونهضت فيه دولة الشعر نهضة سامية تجلت في الصحف آناً وفي نغمات المذياع آناً اخر؛ وهكذا ترقى الأمم التي يكتب الله لها الرقي؛ فتجد من كل مناسبة في الحياة سلماً تصل الى أوج الكمال!!

ومضى اليوم حتى أشرف على الزوال وهناك وفي مرافئ الآفاق البعيدة كان رمسه!!

وأما هذا اليوم، فلا أكثر من أنه صورة مطابقة للأيام الماضية ولما انتهى وقت الدراسة لبّيت مع زميليّ "عمر و زين" دعوة أحد إخواننا من الطلبة بمنزله؛ فتحدثنا طويلاً عن شتى الحوادث وكان جلوسنا في روضة جميلة، زينتها الورود من كل جانب، وتبسمت لها ثغور النرجس والأقحوان والياسمين وغردت في جنباتها عنادل الأصيل، وأخذنا مجلسنا هناك، وودعنا ذلك الزميل أطيب الوداع؛ وهاهو الليل أرخى سدوله وألبس الكون حلةً سوداء، دون سوادها لون المداد. فوداعاً يا يومي وسلام عليك أيها الغد !!

## ١٤ فبراير

كثيراً ما يحاول بعض الذين عجزوا عن الوقوف على حقيقة نفسٍ طال عليها الغموض، أن يكشفوا ذلك الستار الذي حجب عنهم هذه الأمانيّ وهيهات !! وكل ما يمكن أن يفعلوه، هو أن يستبينوا ذلك القبس الذي يلوح في بعض السطور. والذي تتمثل فيه خبايا نفس يتوارى في جنباتها الكون بأسره. ولكن إذا رام أحد غير ذلك، فقد لا يظفر مني بكلمة أقولها له. ولا بجملة تؤدي المعني الذي يروقه. فإنني أحب وأهوى صحبة القلم، وبياض

الطروس الذي يحجبه مداد اليراع، فبهذين وحدهما أخاطب نفسي حين أكتب، ونفسي تخاطبني حين تُملي. فلا سبيل إلى معرفة مافي أغوار هذه النفس، على قلة هذه المعرفة، إلا التأني في كل كلمة يكتبها اليراع. فأنتم يا من أبيتم إلا الوقوف على بعض النفوس الأبية، دونكم هذه النفس التي سعيتم في معرفتها؛ فأعجزتكم الحيل! تناولوا صفحة من صفحات سجَّلها اليراع، وأطيلوا فيها النظر، وقفوا بجانبها طويلاً، فقد تلوح لكم هناك، طلائع هذه النفس التي سعيتم سعياً حثيثاً في معرفتها. وثقوا تماماً بأن هذه المعرفة لو توصلتم إليها عاجلاً أم آجلاً، ستنمحي في سرعة البرق من صفحات عقولكم، لأن بقاء الصالح، في دنيا هذا حالها قليلٌ.. قليل....!!

أعجب كثيراً لهذه الخواطر المتدفقة، والتي يقف الألم العميق الغالي عرضة في سبيلها، فيحول بينها وبين المُضيّ. فإن غلب عليَّ خاطر، وشغلني عن ذكر الأمس واليوم، فلي في غدٍ حديث كثير!!

## ١٦ فبراير

يقولون إنه مجنون، لا لأنه يضرب الناس بالحجارة، أو يسبُّ هذا، ويشتم ذاك، ولكنه لأنه طبيب يداوي المجانين!!

يقولون ذلك؛ ولا ينطقون به؛ ولكن أيُّ معنىً ذلك الذي يبدو في صمت الثغور !! شرب الناس من خمر الزمان فسكروا، أمّا أنا فبقيت أنظر إلى الزمان نظرتين؛ نظرة أعرفها أنا، وأخرى ظنَّها بعض "العقلاء" إنها نظرة "المجانين".. كيف لا يقولون ذلك، وسلاف الدهور سبحت بالعقول في دُنا الأحلام !!!

رباه ادرك قومي فإنهم قد ضلوا السبيل، وحادوا عن جادة الرشد والهدى !!

يقولون إنه عاقل من العقلاء النادرين؛ لا لأنه نطق بالحِكَم والأمثال، ولكن، وهذا في نظري لأنه استطاع أن يحبس لسانه في زمانٍ ما نطقت فيه الألسن إلا بكل مستهجن قبيح!! وكيف لا أكون كذلك، وقد رأيت بعيني رؤساء طاحت بها مقاصل الذلل، وكرامات أودت بها سقطات اللسان!!؟، ليس في الحياة ما يرفع قيمة الإنسان أو يخفضها مثل اللسان ولا تكون قيمة الإنسان في الحياة، إلا بمقدار ما ينطق به في ساعة النطق، أو ما يسكت عنه حين يجمل السكوت. واذا سُئلت رأيي في ذلك لفضلت السكوت مدى الزمان إلا قليلاً .

لأنني لا أرى في الناس مَنْ يفهم ما يسمع، أو يعي ما يقال. من هنا، تكونت عندي هذه العادة.. عادة السكوت والاكتفاء بنظرة تجول في الناس فلا يعرفون لها معنى، وتكونت عند الناس هذه النظرة التي اعرف معناها منهم، والتي تدل على الحيرة والشك في أمر هذا الفتى العجيب. ولحينٍ أعود فيه لهذا الحديث مرة أخرى أترك هذا القول، واسدل عليه ستاراً تجدون مكتوباً فيه يا قومي "إن العوان لا تُعلّم الخِمرة".

## ٢٠فبراير

من الأشياء التي كثيراً ما ألتزمها في الكتابة، والتي يجب أن يسلكها كل كاتب، هي إنني أُطلق لليراع العنان، وأجعله يكتب ما يشاء؛ لأن في ذلك لتصويراً صادقاً لما يجول في النفس ويعتلج فيها. وما الذي يطلبه الناس للمعرفة غير الوضوح المقرون بالجمال الذي تصحبه القوة ومتانة التركيب؟!

هذه القاعدة ترتاح لها نفسي كثيراً. فلا أرى بعد ذلك بُدّاً من السير على ضوئها. وهل يخاف المدلج ونور القمر يكسو البطاح.!؟

تجول في نفسي الخواطر إثر الخواطر. وتعصف أنواع الفكر بجنباتها، كما تعصف الرياح الهوج ببطاح الوادي الفسيح وبين هذي وتلك، تلوح لي معالم الكون المندثرة في

ثنايا الماضي، والكامنة في حاضره، والرابطة في آكام المستقبل البعيد القريب !! فلا عجب إذا صرت أنظر إلى الكون بمنظار لم يعرفه أحد من الناس بعد. ورغم ذلك فلا أظهر لأحد منهم بأنني أعرف شيئاً من الحياة والناس. وكيف لا وقد شهدت بعيني سخرية الناس بالثرثارين وكيف يتنزعون منهم الثقة في اقل من لمح البصر؟!

العاقل في هذه الحياة، من يتلقى معنى الرجولة من الأيام فقلما نجد يوماً من أيام الحياة مضى من غير أن تكون فيه عظة وعبرة.

علمتني الأيام وأنا في هذه السن، مالم أكن أعلم من قبل وذلك لأني أنصتُّ لها كثيراً، فتعلمتُ منها كثيراً وغيري من الناس أهمل هذه العِبَر فلم يستفد منها شيئاً .

هذه كلمات أقولها ولست أدري لماذا أقولها؛ ولكنني أطيع قلمي، لأنه كثيراً ما يطاوعني. فلا أرضى أن أقابل الجميل إلا بالجميل!!

مضت ثلاثة أيام لم أكتب فيها شيئاً ولم تمضى ساعة من ساعات تلك الأيام، ولم يكن ذكر تسجيل الحوادث ماثلاً فيها أمامي. ولكن ظروف الحياة اللئيمة حالت بيني وبين ما أريد .

ولست أنسى من هذه الأيام الخوالي لحظة من لحظاتها. وكيف ينسى المجروح آلام الكلوم وهي تنزف دماً؟ وهل تتلاشى دلائل المرض حين يشرف المريض على الشفاء من ذاك السقام؟! لست أنسى يوماً يمر عليَّ وإن تظاهرت بأني نسيته؛ إذاً فلا مناص من سرد حوادثه في شيء من الإيجاز الذي لا يترك شيئاً إلا أشار إليه!!

إن في كل لحظة من لحظات اليوم، معنىً يسمو إلى طبقات الفكر النائية. وفي كل معنى هذا المعاني صورة لعبرة بالغة من عبر الدهور. وكيف لا تكون كذلك والأيام علمتني

أن "الثانية الواحدة" من ساعات اليوم هي لفظ من معنى جسيم ومعنى للفظ معناه الحياة !؟

مضت هذه الأيام الثلاثة مفعمة بالحوادث الصامتة التي ترتسم صورها على وجوه البشر. فأستطعت أن أستخلص منها معنى لا بأس من معاني الإنسانية. قد يقول البعض: ما لهذا الفتى يكثر الحديث عن الحياة والناس والآيات والعبر ؟ ماله يكثر ترددادها حتى يوشك السامع أن يملَّها! قد يقول البعض ذلك وقد لا يقولون! ولكن ما الذي يكثر الإنسان ذكره إذا ما ذكر، وعمَّ يتحدث إذا شاء أن يتحدث؟ وهل نحن إلّا بشرٌ تحيط بهم أسوار الحياة من كل جانب، ولا يجدون لها أبواباً غير الآيات والعبر!!

جاءني بالأمس فتى، وجلس بجانبي، فسألته ماذا يريد ؟ فقال "انصحني" فإنني في حاجة للرشد والهدى. لقد فتشت في هؤلاء الناس الذين أراهم أمامي، فلم اجد فيهم من أسند اليه هذا الأمر إلا أنت. فهل فيك للآملين رجاء؟!!

قال ذلك وقد صمت طويلاً. ثم أنشأ يقول "تخدعني الحياة دائماً. وتجعلني أعتبر بالظاهر منها وأترك الباطن لها جانباً، فجعلتني أُحسِن الظن بالناس كثيراً؛ وأحكم على مقدار فهمهم للحياة، بمقدار ظواهرهم. ولما تبينتُ الحقيقة، أدركتُ أني لا أعرف منها شيئاً. فبحثت بين هؤلاء الذين اعتقدت فيهم الرجولة والعقل، بحثت عن رجل يُعرِّفني ماهية الحياة، وقيمة الإنسان فلم أجده. والآن آمنتُ بأن الذين يطيلون النظر والسكوت، هم أدرى الناس بالناس وقد عرفت فيك هاتين الظاهرتين منذ أول يوم رأيتك فيه. فأهدِ أخاك إلى جادّة الصواب، فمثلك يا أخي بفضل تجاربه في الحياة، يستطيع أن يُرشد غيره ممن أغوتهم الحياة وزينت لهم سبل الباطل فمشوا فيه" قال الفتى ذلك وصَمتَ طويلاً وهو ينظر إلى الأرض فقلت له بعد ذلك:( هون عليك يا رفيقي فالأمر هين، وهو لا يستحق هذا

الاهتمام الذي تعيره إياه. ولا أريد ان أطيل عليك الحديث فالأيام وحدها ستكشف لك عن نفسها نوع ثوب الرياء الذي كانت ترتديه. وثق يا صاحبي تماماً، بأنها إذا خدعتك اليوم، فسوف تأتي اليك صاغرة مهطعة بعد قليل، لتستغفر عن ذنوبها، طالما إنها وجدت فيك الرجل الذي يعتبر.

أوصيك بهن خيراً فإذا حافظتّ عليهن وجدتّ في نفسك رجلاً عفيفاً، لا يكلمك أحد إلّا باحتشام، ولا يحادثك آخر إلا باحترام..

فأحبس لسانك ولا تطلقه. فإنك إن فعلت ذلك فقد تغلبت على عدو كاشح لا يذهب بك إلا إلى موارد السوء والهلاك. فإنه يا رفيقي، ما رفع من قيمة الإنسان ولا حطّ من قدره مثل هذه الآلة الصغيرة! فأنها على صغرها كثيراً ما جلبت لصاحبها الشرور والآلام!!

ولا تتكلم كثيراً. فإن الإنسان لا يأمن الذلل، فرُبّ سقطة من سقطات اللسان تؤدي بصاحبها إلى حياض الردى!.

وأخيراً، إحترم الناس ما استطعت. فإنك إن فعلت ذلك أفدت نفسك من حيث تدري ولا تدرى .

هذه جمل ثلاث أقولها لك، بعد أن بلوتُ الناس أمداً، وقلّبتهم حيث لم أدع مجالاً فيهم إلا كشفته، وخرجت منهم بعد ذلك بهذا القول الذي ألقيه عليك، وثق يا صاحبي بأن الناس يعيشون بالمجاملة؛ فهذه هي التربطة التي تصل بين الواحد منهم والواحد .

والإنسان هو الإنسان أيان ذهب! فلا تغرنك منه ابتسامة يرسلها، ولا سرور يبديه! ولكن تقبلها منه على أي حال، فهي كل ما يستطيع ان يغطي به ما في خبايا نفسه السوداء! قلت له ذلك وانصرف، على ان يعود ليخبرني بالنتيجة بعد أيام .

هذا قليل من كثير ولا تفتأ الأيام تكشف لنا كل ساعة عن جديد !!

**اليوم نفسه :**

تلاشت من ثغري ابتسامة كانت ترتسم عليه، وليست هي ابتسامة السرور والسعادة، إذ لا شيء في الحياة يدعو للفرح، ولكنها ابتسامة السخرية، التي لا أجد أحداً من الناس عبّر عنها، كما كانت تختلج في نفسي، كأبي القاسم الشابي حيث قال رحمه الله :

وإذا ما استخفني عبث الناس تبسّمتُ في أسىً وجمود

بسمة مرة كأني أستلُّ من الشوك ذابلات الورود

أي والله! تلاشت هذه الابتسامة وخلفتني كئيباً حزيناً؛ لأنها كانت رحمها الله كل ما أملكه في الحياة!! وقد تعود هذه الابتسامة بعد قليل؛ لأنها لا تعرف الصدود والهجر؛ وكيف يطيب لها الصدود عن هذا الفرد الذي أحبته وأحبّها ؟

لابد لي من التجرد من كل قيد وعاطفة وابتسامة، إذا ما حاولت أن أكتب في هذا الموضوع الذي يدور بعقلي اليوم. لأن العاطفة دفة النفس والعقل ولكنها تقود الأولى إلى ناحيةٍ حميدة وتُسيّر الآخر إلى لُجّةٍ عميقة لا خير فيها. فلا مناص أذن، من تركها جانباً لتبدو صورة المراد واضحة جلية، لا لبس فيها ولا غموض .

تجول في نفسي فكرة التحدث عن الطلبة السودانيين في مصر. ولا أستطيع أن أخالف أمر نفسٍ يقودها ضمير حيّ حساس. ولو كنت أعهد فيها، ما في النفوس البشرية قاطبة من حيث إنها توردهم موارد الموت، لما أطعتها في كلمة واحدة تمليها عليَّ. لأنني لا أريد ان أكون طوع نفسي بل أُفضّل أن يكون الدليل دائماً هو الضمير. أريد ان أتحدث عنهم وان أضعهم في كفة العقل، لأرى مقدار الفائدة التي يجنيها الوطن منهم؛ لأنني أعتقد أن أيَّ شيء بعمله، مها كانت قيمته، لا تكون للسودان مصلحة فيه، أعتبره عملاً لا قيمة له

وإن جلّت قيمته!! وأي شيء يحقر في نظري عدا الأعمال التي يأتيها الناس خلواً من فائدة يجنيها الوطن!!.

فأنا اليوم أكتب عنهم، وقد رميت بكل فكرة بعيداً. لأنني لو جعلت لذلك مكان في نفسي، ما حركت القلم ليكتب شيئاً، طالما أن الألى أكتب عنهم من فصيلة الإنسان!!

لا يمكن أن أجزم بأن الوطن سيجني من وراء هؤلاء الطلبة كلهم، الفائدة التي يرجونها، لأنني إن جزمت بذلك فقد أكون مجرماً في حق التاريخ والوطن .

قليل من هؤلاء الطلبة، من أدرك قيمة الرسالة التي يجب أن يؤديها نحو بلاده؛ وأما الآخرون وهم الأغلبية، فما زالوا زغب الحواصل وإن كَبُرت أجسامهم وأعمارهم!!

فيهم الطفل، وفيهم مدّعي العلم، وفيهم الذي يمشي شامخاً بأنفه كبراً، لأنه رأى مصر وتعلم فيها! ألا بئس العلم الذي لا يهذب صاحبه؛ ويجعل منه رجلاً قبل كل شيء. وهذه صفات موجزة غاية الإيجاز عن الألى لا يأمل الوطن منهم خيراً. ويقيني أنهم إذا بقوا على هذه الحال، سوف لا يفيدون أنفسهم أدنى فائدة بل الوطن!! ولكن من يدري، فقد تتغير الأحوال ، وتحيا النفوس والضمائر التي طال عليها أمد المكث في حنايا الضلوع الميتة؛ فنرى الطفل فيهم قد أصبح رجلاً يعرف معنى الوطن والوطنية، ويقدر نفسه حق قدرها، لا لمصلحته هو، ولكن لأن عاقبة هذا التقدير سينال من ورائها الوطن خيراً كثيراً!.

ونرى مدعي المعرفة فيهم، أصبح يحس أن الإنسان لا يجديه التطاول؛ وأن المرء كلما ازداد علمه وتفهمه للحياة وأغوارها؛ زاد تواضعه وقلّ كبرياؤه الأجوف، لأن الإنسان مهما ادعى المعرفة، فهو قاصر عن تفهم الحياة وأسرارها، وما قيمة الإدعاء أذن، ونحن لا نستطيع أن نُعبِّر تعبيراً صحيحاً عن أقل المحسوسات التي نراها ونسمعها ونحسها ؟

ما قيمة ذلك والرسول الكريم عليه السلام يقول (لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن انه قد علم فقد جهل!!)

أنا، وما أكثر ما أمقت كلمة أنا ، والله قد شقيت بعقلي. عقلي هو الذي أوردني هذه الحِياض التي لأجد فيها غير العلقم والصباب والسم الزُّعاف !!

أفكر كثيراً في هؤلاء الطلبة، فأبكي كثيراً بدموعٍ لا تسيل من العينين، ولكن بدماء تسيل قطرات من قلب شقى بالحياة في سبيل البلاد! ولكن الذي يعزّيني ويخفف من لوعتي أنني أجد من بينهم أفراداً بل جمرات من الغضى، تلتهب التهاباً شديداً فتأتي على أخضر الباطل ويابسه!! فيهم لعمر الله رجال؛ ولكنهم . مع أسفي لذلك . أقلية. رجال أُبَشِّر الوطن بالخير الذي سيلقاه على أيديهم. وهل بغير الرجال المخاريق الأشاوس تسعد الأوطان ؟

أقول انهم قليلون وهكذا كلُّ عزيز نادر. وليست قلتهم معناها الفشل في القيام بالرسالة التي وضعوها نصب أعينهم، فما تعرف الضمائر الحيّة والقلوب الآبية معنى للفشل!!

أنا لا استطيع أن أصف الرَّجُل بأكثر من أنه رجل !! وهذا هو السبب في إنني لم أتحدث عن الطلبة الرجال إلا قليلاً!. كما أني لا أستطيع أن اصف غير الرجل، بأكثر من أنه غير رجل. ولما كانت صفات الرجولة والبطولة نادرة، وصفات الخنوثة والأنوثة في الرجال كثيرة، فقد أضفيت على الأخير منهم ثوباً فضفاضاً من النعوت والأوصاف والمعاني !! نعم والله أقول فيهم ذلك وأكثر من ذلك؛ لأن أمثال ذلك الشاب الذي يقف وسط جمع حافل ويعلن بكل صراحة وجرأة، أن السودان لا يمكن أن يستقل في يوم من الأيام، أمثال هذا الفتى الرعديد الذي لا تبلغ همته قوة خيط العنكبوت، خليق بأن يقتل وأن يُرجم إذا وُكِل إلى الأمر!! لأن هذه النفس الميتة التي تمثلت في هذا القول الذي لا تقوله إلا النساء؛ من

العيب الفاضح أن تحيا وسط النفوس الأبية التي لا تبتغي في الحياة شيئاً غير رفعة الوطن ومجده واستقلاله !!

هذه كلمة أقولها للتاريخ والزمن، خالية من كل شائبة، منزهة عن كل غرض. بل هي صورة واضحة، لهذا المعنى الذي ما استطاع الناس أن يضعوا له حداً أعني معنى الطلبة السودانيين. وقد تجيء الساعة إذا استمر الحال هكذا، لأعلنها حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا لين، على هذه النفوس التي لا تصلح إلّا بالشدة والعنف. سأعلنها حرباً ضروساً، أمام السودان قاطبة وأنقُد كل واحد منهم نقداً لا يستطيع الواحد منهم أن يتبينه في نفسه. وقد تجيء هذه الساعة التي أفعل فيها ما أقول ولا أظنها ببعيدة! لأننا نريد رجالاً لا أشباه رجال. نريد أن يكون كل من تغرب عن وطنه رجلاً عرف معنى الوطن وهاجر وشقي ولاقى عنت الليالي في سبيله! لا أن نكون كالدمى "تنقلها الأيدي من مكان إلى مكان وهنّ خرسٌ ساكنات " !

نريد أن يكون كل واحد منّا جمرة لا تنطفئ، ولسان لا ينقطع وسيفاً مرهفاً لا يُفل ، نريد أن يشعر كل واحد منا بعزة وكرامة؛ وأن يكون لكل واحد منا لسان لا يمل القول، ولا يفتأ مردداً مع الشاعر:

هِمّتي هِمّةُ المُلوكِ ونفسي*** نفسُ حُرٍّ ترى المَذلّةَ كُفْراً

إن فعلنا ذلك، فقد ضمنا لأنفسنا البقاء وضربنا لكل حاسد مبغض، مثلاً أعلى في الاعتداد بالنفس والاستمساك بالرجولة. إذاً لا معنى لهذه الطنطنة الكاذبة التي نسمعها كل يوم ولا نرى من ورائها شيئاً ...!!

فالطالب يجب ان يكون مرآة يتمثل فيها الوطن، ولا أساس لهذا التمثيل إلا أخلاق الرجال، لا نزوات الشباب. وها هو السيف في يدي لايزال مجرداً من غمده، فإما إن وجدت فيهم جميعاً رجال ترجى فائدتهم، ويخشى بأسهم، وتهاب سطوتهم، وتنفذ كلمتهم،

ويعترف القائمون بالأمر بوجودهم كهيئة لها نفوذها وحدوتها وكيانها الذي لا يزول، وفي هذه الساعة أغمده في قرابه.. وأما إن وجدت فيهم هذا الجمود الذي ألحظه اليوم، وهذه النفوس الميتة التي ألمسها في كثيرٍ منهم، وهذا الإحساس الفاتر الذي أحسه في كل واحدٍ منهم، وحينذاك أهوي به على الرؤوس، فلا ادع منها واحدة على جسد، وآنذاك تبدو الحقيقة واضحة للعيان، فتموت الكرامة من وقتذاك ويتحطم الواحد تحطيماً لا إصلاح بعده، حين تنكشف هذه الأثواب الزائفة التي يرتدونها .

ولا أزال أنظر أعلى مكان لأشاهد الحوادث كيف تسير، ولأرى النفوس كيف تحيا، ولأتبين الرجولة كيف تبدو، وإلّا.. فلست بتاركٍ هذا العهد الذي قطعته على نفسي إذا كان في الأجل بُلغْة أو ضبابة! فيا أُفْقُ سجلها ويا أنْجُمُ اَشْهَدي !!

## ٢٣ فبراير

إذا ما تركتُ يوماً دون أن أشير إلى حوادثه بشيء، فليس معنى ذلك أني نسيته ونسيتها؛ ولكن ذلك دليل على أن اليوم مضى وخلّف وراءه شعاع الأيام الخالية التي سبقته، وفي هذا أكبر دليل على ان ذلك اليوم خلوٌ من الحوادث ولكل يوم من حياتي أطيب ذكر وأجلُّ احترام !!

آذنت شمس الأمس بالمغيب، حين مضت صعداً في جمع من الطلبة قاصدين تلال المقطم في حلوان حيث يربض المرصد وإني لألوم نفسي على تقصيرها في عدم مشاهدته منذ العام الماضي؛ ولكن ربما كان لها العذر في ذلك التقصير؛ فلا لوم ولا عتاب؛ وهل كنت يا نفس تفعلين شيئاً بمحض اختيارك حتى أنحي عليك باللائمة ؟ كلا ... كلا فأهدئي، واستريحي !!

لست أدري، لماذا لا أقدر على الكتابة في هذه اللحظة؛ ولي من عِبَر الماضي خير سلوى من مآسي الحاضر! ولكن رغم ذلك سأبذل جهدي في حديث عمَّا يخالج النفس من أحاديث الشجون!!

أقول ذهبت إلى مرصد حلوان الشهير حيث عجائب الإنسان تتمثل بأجلى معانيها، الإنسان الذي استطاع أن يحاسب الأفلاك والنجوم والأرض على كل حركة تصدر منها!

عجبت كثيراً لما رأيت، وسررت أكثر مما عجبت ولا غرو في ذلك فهذه النفس مازالت مهداً، لصدام الأضداد من فرح وحزن؛ وإعجاب ودهشة، منذ أن عرفت أن صاحبها سيَخُطُّ لها في سفر الخلود صفحات وصفحات !!

تلال المقطم سر من أسرار الطبيعة في نظري، تحتضن في رفق ولطف، مدينة حلوان؛ الجميلة وكأنها في العلوّ الشاهق، أرادت ان تخفي وراءها تلك التلال الكثيرة، والنجاد التي تضم بين طياتها فجاجاً عميقة تطل على الناس في زهو واستكبار، كأنها تريد ان تبوح بأسرار القرون الماضية، فتمسك عن ذلك حياءً وخجلاً، ولو نطقت بشيء لأخرست كل جبار عنيد، وألجمت الألى يدّعون المعرفة بكل سرٍ عميق !!

فوق أعلى قمة من هذه التلال الصامتة، يقف المرصد في عظمة وقوة وجلال رهيب. وقف بنا المطاف بعد جولة طويلة في أنحائه، رأينا فيها كيف تقاس سرعة الهواء وضوء الشمس، وكيف يبدو القمر، جميل في أوضح صورة يمكن أن يراها الإنسان، فلا عجب في ذلك، فالعصر الحديث ما ترك شيئاً من معميات العهود الغابرة إلّا كانت له يد في كشف غوامضه. فهذا القمر الباسم، سلوة العاشقين وأنيس المسافرين، ورفيق الصبا في لهجه الطاهر، قد أذعن لسطوة الإنسان في هذا العصر، فبدا في جمال عجيب، كأنما أراد بذلك ان يكشف لهم سر الجمال الكامن فيه!!

بعد هذه الجولة الطويلة القصيرة، وقف بنا السير في حُجرة يقال لها حُجرة الزلازل. فولجنا بابها، وإذا بأسرار الأرض قابعة هناك. رافقنا في ذلك التجوال رجل أكبرت فيه العلم والمعرفة التي تبدو عليه في تواضع عجيب! فهو الذي كشف لنا كل غطاء عن أسرار هذا العلم!!.

الإنسان قاصر - ما بقِيَ حياً - عن إدراك أسرار الوجود، ولكنه بلغ من تفهمها منزلة لا يستهان بها، إذا قورنت بالأزمان الخوالي، وأسرار هذا العصر لم يقف عليها إلّا نفر قليل من الناس. ونحن كلما ادعينا معرفة شيء، جهلنا معه أشياء وأشياء وما أحقر ما نعرفه، وما ندعي علمنا به!!.

ليست الزلازل في الواقع إلا نتيجة لانفجار في الأرض أو ضغط فيها، ولو دام أكثر من جزء من دقيقة الساعة لأهلك النفوس ودمر البيوت وقوّض القصور. ولكن قدرة الله تعالى جعلت عمره ليس كالأعمار! وهو يسير في طبقات الأرض على هيئة أمواج يتلو بعضها البعض، وبهذا يمكن تسجيل مدته على لوحة مخططة تسير عليها إبرة مسجلةً الاهتزازات!.

وقد أخذني العجب حين علمت أن اليابان تلك الدولة التي كونت نفسها في هذا الأمد القصير بها أربع وسبعون محطة لمعرفة الزلازل حين حدوثها وقبل الحدوث بمدة يومين، وبذلك يأخذ السكان الحيطة لما يمكن أن يحدث منها!! وأني لأعجب كثيراً لهذ العلم الذي وصل بهم إلى معرفة ما يمكن حدوثه من الزلازل ويُعلّلون معرفة ذلك، بأن الأرض ترتعش قبل حدوث الزلزال بأمد طويل، ويظل هذا الارتعاش مستمراً فيها شيئاً فشيئاً حتى تنهار الأرض دفعة واحدة، فيحدث ما كانوا يتوقعون !!

وليست فائدتها مقصورة على معرفة حدوثها أو إمكان حدوثها، لأن ذلك أمر لا يغيّر شيئاً ولا يغني كثيراً، ولكن الفائدة العظمى التي توصل اليها العلماء من هذه الزلازل هي

معرفة طبقات الأرض. لأنهم عرفوا مقدار سرعة الاهتزاز في كل نوع من الطبقات الأرضية بواسطة الزلازل الصناعية، فسهل عليهم الحصول على معرفة كل جزء من أجزاء الأرض. حتى قالوا انهم توصلوا إلى معرفة آبار البترول في المكسيك بهذه الطريقة عينها.

وقد سمعنا بأن نفقاً تحت البحر سيحفر مخترقاً البحر الأبيض مارا ببوغاز جبل طارق ، تمر به السكك الحديدية وغيرها من سبل المواصلات. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وسكتت عن ذكره الألسن، وأحجمت عن الكتابة فيه الصحف .

وما ذلك إلا حين ظهر عدم إمكان ذلك العمل الشاق، ولم يمكن الحصول أو الوقوف على عدم إمكان الحفر إلا باستعمال زلزال صناعي توضع عدده في قاع البحر. وحين ذاك وجد أن سُمك الحجر في تلك البقاع مقداره تسعمائة متراً. وهذا شيء لا يستهان بعظمته. وأمام هذا الحائل العظيم ، أُبْطِل ذلك المشروع .

ولم تقف دهشتي أمام عظمة هذه الأشياء فحسب، ولكنها تعدتها بكثير حين علمت ان إنشاء الجسور شيء لابد فيه من مراعاة ما يحدث من الزلازل، وإلا كانت العاقبة شراً مستطيراً، كما حدث في شمال إيطاليا. فقد أُنشئ جسر طويل جداً على أحد الأنهار هناك، ولم يمض زمان قصير حتى أنهار ذلك الجسر بعظمته وشموخه، شاكياً أمره إلى الذي وضعه على ذلك الحال. وبعد التقصي في الأسباب وجد أن طبقات الأرض التي أقيم عليها الجسر تختلف كثيراً عن بعضها البعض. فكانت أن حدثت بعض الهزات الأرضية فتأثرت بها أجزاء من الأرض، إنهار فيها الجسر انهياراً شديداً محزناً .

هذه الأشياء وغيرها، تكشف عن أسرارها طلاسم العصر الحديث القائمة على العلم، وأن الذي يتْزَرِع به لا يخشى من عوادي الزمان شيئاً. وهل يخش النزال فارس شاكي السلاح مدجج؟ إن الإنسان كلما ألقى ببصره نحو الآلى بلغوا من العلم هذا الحد، زاد

احتقاره وعدم مبالاته بهذه النفس التي لم تبلغ بعد ما بلغ هؤلاء الأقوام. وكم هو جميل إذا اتخذ منه نبراساً يُهتدى بنوره حتى يصبح هو قبساً يُهتدى به.

فالعلم والإرادة شيئيان لا يفترقان، ومن وهبه الله هذين الأمرين فقد وهبه كثيراً.

فمرحى بك أيها العلم، يا منقذ البشر من ظلمات الزمان، ويا هادي الإنسانية سواء السبيل. وما هنّاتك التي عادت بالشر على الناس، بمساوية شيئاً بجانب بهذا النور الذي أضفيته على الكون !!

## ٢٨ فبراير

إن المرء الذي يألف النوائب والصروف، كثيراً ما تصغر في عينه نازلة يأتي بها الزمان من بعد، وإن لم يوجد هذا المرء الذي أعنيه، فلست أعني سوي نفسي وأنا أكثر الناس مقتاً وكراهية للتحدث عن النفس، كما إنني أكثرهم حباً للإشادة بذكرها، ولكن بيني وبينها، لأنها تستأهل في كل ثناء ومدح مستطاب.

مضت أربعة أيام على آخر سطر خططته قبل هذا التاريخ وما نسيت فيها " يومياتي" لحظة واحدة. وكيف أنسى قلباً أودعته بين السطور ؟! مضت هذه الأيام، وأفلت ذمامها من يدي قهراً؛ ولولا ذلك، ما تركتها تمرغ في الوادي الخصيب!!

حلَّ أول يوم من هذه الأيام الأربعة؛ وفي صباح الباكر، أحسست بفتور شديد، توقعت بعده نزول داءٍ أشد. واحذر اليوم يسير الهوينا، حتى حانت ساعة من ساعات العصر، حضر فيها مندوبان من الجمعية الأدبية بالنادي السوداني، ليتفاهموا في شئون تهم الطلبة كما يقولون في رقعتهم التي بحثوا بها ...!!

جلّ ربي! إلى متى يا قوم نحن في هذه الفوضى؟ وحتى متى يسير بنا هذا الزورق المشئوم في هذا البحر المتلاطم الذي لا ساحل له؟! متي يستقر بنا السير في شاطئ وداع ساكن لتنزل فيه جموع الطلبة أمنة مطمئنة؟!

لقد سئمنا والله هذه الدعوة القائلة "بالاتحاد" سئمناها والله؛ وإن لم ويوجد في الكون أحد قد ملّها وسئم تردادها لكنت أول وآخر من كرهها وعاف سمعها!

عفت سمعها، لأنني سمعتها كثيراً، ولم أجد في النهاية نتيجة لها؛ أو عملاً يستطيع أن يقول الإنسان عنه أنه عمل صادر عن رجال!!

لقد فشل الطلبة السودانيون من عملهم الوطني. وهذا ماكنت أتوقعه وأخشاه! لقد أضاعوا الفرصة من يدهم، وأصبحوا ينشدونها بعد الفوات. وهل يفيد البكاء على الطلول بعد رحيل الأحبة؟! كلا والله كلا! لقد نفضت يدي منكم يا أشباه الرجال ولا رجال. لأن المرجل لا يغلي إذا وضع فوق الواح من الثلج. وإنني لأخشى أن تصل عدواكم إلى هذه النفس الثائرة، الساخطة على هذه النظم و الأوضاع، وحين ذلك لا يمكن أن أقبل الحياة خالية من الثورة، مفعمة بالركود والدلال، فلا أجد محيصاً من الخلاص منها!!!

تحدث هذان المندوبان ما شاء لهما ان يتحدثا؛ وفي نفسي عما تحدث عنه آلام واشجان، وحسرات بعد حسرات!! ثم ودعناهم، وفي كل لحظة من لحظات البصر ، وفي كل خفقة من خفقات الفؤاد، لسان يدعو لهم بالنجاح في مسعاهم، على أن لا يكون لي في ذلك نصيب، لأن أكثر شيء يسرني أن أرى هؤلاء الطلبة يجمعهم قلب واحد وشعور نحو الوطن الواحد. فإذا ما توفر هذان العنصران، فلا أهمية لزمان ولا مكان فيه يجتمعون!!
وكنت أحس في أثناء الحديث أن الألم يأخذ في الزيادة ساعة بعد أخرى، فما أعرته نظرة جديّة وذهبت توًّا إلى حيث أقامت المدرسة حفلها السنوية ، التي مثلت فيها رواية يوليوس

قيصر ، وكليلة ودمنة ، وتخللتها بعض الأغاني الجميلة، والموسيقى التي تعيد الحياة في النفوس التي ضناها ألم الوطن وخذلان أبنائه، وتقاعدهم عن نصرته. ولكني عن كل ذلك كنت من المعرضين لأن الحمى هجمت عليّ في تلك اللحظة هجوماً لا هوادة فيه، وأعلنتها حرباً ضروساً على هذا الجسد الضاوي فوقفت في وجهها مدة من الزمان حتى انتهى الحفل. وذهبت حيث لزمت الفراش حتى البارحة. ولست أنسى ذلك الشعور الجميل الذي ابدأه بعض الإخوان في التخفيف من هذا العبء الثقيل. فما حرموني مؤاساتهم، ولا أحاديثهم، ولا أيّة وسيلة من شأنها أن تُذهِب عني هذا الداء العياء!!

طفقت رهين الفراش أربعة أيام حسوماً، لم أبرحه ساعة، ولا عنه أحيد. وأنا أقاسي من آلام الحمى ما يقاسيه كل رجل ألِف المصاعب. فأبسم في وجه ذاك مرة وأتحدث إلى ذلك مرة، حتى ظنّ بعض الذين لم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا. أن يسبروا أغوار هذه النفس العميقة، أن هذا الفتى ليس بمريض ولا بمحموم. ولكني على أيِّ حال لا الومهم على ذلك وإنما يُعاتبُ الذين يعلمون ويغفلون !!

وهكذا انقضت هذه الحمى الخبيثة، بعد أن خلّفت وراء هذه المعركة جسماً زاد نحولاً على نحوله، واكتسى هزالاً على هزاله. وأصبح هذا النضو يبسم بسمة الساخر من هذي الألاعيب. ولاتزال آثار المرض حتى هذه الساعة باقية، تلوح معالمها المندثرة من هذه النظرات الغائرة العميقة، وفي هذا الصوت الذي مضى الداء بقوته وصرامته. وقد تعود الحياة بعد قليل إلى حيث كانت. وتستقر الأمور في أماكنها؛ وآنذاك تعلم الليالي والنائبات أن الصخرة الجلمود، لا تؤثر فيها أنامل الحسناء !!

**٧ مارس**

انطوت من هذا الشهر الوليد سبعة أيام كاملة؛ لم يجرِ فيها اليراع فوق صفحة الطرس شبراً ولم يخط فيها من خط النوائب سطراً!! وما بعجيب أن يحدث ذلك في زمان نرى فيه الكريم الحر عبداً !! ومن عجائب الزمان، أن هذه الأيام التي مضت والتي كانت عطلة يستعيد فيها الطلاب شيئاً من راحتهم، كانت فترة عجيبة!! من حياة عقل عجيب !! فيها أحسست بالحياة الجميلة في أبهى ساعاتها، وفيها شعرت بأنني لم أعد مثقلاً بالهموم التي كانت تتخذ من جوانب نفسي محطاً لرحالها! ولم أعُد أفكر فيما كنت أفكر فيه من قبل من مآسي الحياة وآلامها؛ فكانت هذه الأيام فترة انتقال بين ماضي مظلم حالك اللون، وبين مستقبل أنا أجهل الناس بمكنوناته وغوامضه! فعجبت لليالٍ كيف طاب لها أن تُسدي هذا الصنيع بعد أن أرتني وجها غدافيّ الإهاب؟!

أنا مازلت في حيرة من ذلك الشعور الذي أحسست به منذ قليل؛ بل لأنه في الواقع شعور غريب عليّ، فالعقل خالٍ مما يكدره وكأن همومه ذهبت مع الرياح في وادي النسيان السحيق! والنفس مشرقة الجوانب، وقد تبددت ظلماتها الحالكة التي كانت تستولي عليها. والقلب تملؤه الحياة بشراً وحبوراً وإحساساً عميقاً بالحياة العميقة! كل هذه صفات ما عهدتها في نفسي من قبل. ومازلت في حيرة من أمري في تعليل هذا الحال. وقد خلوت لنفسي استفتيها في هذا الأمر فما ظفرت منها بما يسكن الغلة، ويشفي الصدور. ولكن السؤالين اللذين القيتهما على نفس هما: هل للنفوس ربيع في حياتها؟ تتفتح فيه الورود، ويفوح فيه الأريج، وتبسم فيه الطبيعة بسمة ساحرة، وأذا كان كذلك فأين كان هذا الربيع من قبل؟ وأين توارى بهاؤه طيلة هذه السنين؟ أم أن النفس التي مجّت وعافت نظم التعليم، قد وجدت في هذه العطلة سلوى من ذاك العناء ؟!

وقد يكون الأمر غير ذلك. فربما كان في رؤية ذاك الصديق الذي طال غيابه، أول نورٍ يبدد ظلمات هذه النفس. قد يكون الأمر كذلك لأن النفس التي فتشت بين الناس ولم تجد فيهم خليلاً، خليقٌ بها أن تفرح وأن تنسى مآسي الحياة، بعد أن رأت هذا الذي لا تؤمن بأخٍ صادق في وده سواه !!

إن في نفس هذا الصديق لسحراً، كثيراً ما انتزع من نفسي الآلام، وأنساني الهموم، وجعلني أحسُّ بالحياة إحساساً آخر !! لأن اجتماعنا سويّاً معناه التحدث في شئون الحياة؛ والتحدث في شئون الحياة العديدة معناه عندنا الحط من قيمة كل ما من شأنه أن يؤثر في النفس تأثيراً يغير مجراها في الحياة !!

لست أعني بذلك سوى صديق تحدثت عنه كثيراً من قبل، وسوف أتحدث عنه أكثر كلما وجدت لذلك فرصة سانحة؛ فما كل حديث عن الأصدقاء تعافه النفوس. وما أحلى ما يكون هذا الحديث، إذا ما كان عن صديق أحفظ له كل ودادٍ وإخلاص، وكل حب وصفاء، وقد يكون هذا الحديث، أقل ما يمكن أن أعبّر به عن أقل ما أُكِنُّه في قرارة نفسي. فإليك ياصديقي " صلاح" من أعماق نفسٍ نقية، تحية الصداقة الخالصة... وقد تجود الأيام فأكتب عن هذا الإخاء والمودة آيات من السحر الحلال!!

**٨ مـــارس**

مضى الأمس وقد جرفني الحديث نحو غاية جميلة. وكثيراً ما قلت أن الحديث عن الأصدقاء، حديث عذب جميل، ولكنني اليوم أريد أن أترك هذا الحديث جانباً لأعود اليه مرة أخرى؛ حيث إنني أريد أن أشبع هذه الرغبة الكامنة في نفسي، والتي تشير عليَّ بالحديث عن الجماعة!! وهذا موضوع اعتبره خطيراً في ذاته، ولكني أمام هذه العوامل أراني مذعناً لما تريده وما تبغيه !!

كثيراً ما يسألني بعض أخواني عن رائي في الجماعة، فلا يظفرون مني بجواب يروي غليلهم؛ وقد تعمّدتُ أن أُخفي عنهم رأيي في ذلك ريثما تتم نظرتي في ثنايا الناس؛ وحتي تستقر في ربوع الحقيقة بنات الفكر الفسيح!! وقد تم كل ما توقعته، وخرجت بعد ذلك مما أذكره الآن في هذه الكلمات .

كنت وأنا صغير السن أنظر إلى الناس نظرة سطحية ليس فيها بحث أو تدقيق؛ وأقنع بالقشور عن حقيقة هذه النظرة. فأخذت الأيام تمر، والسنون تمضي، وأنا بين هذه وتلك أسير حسبما تقتضيه النواميس الكونية، من نشوء وارتقاء، حتى إذا بلغت السن التي أغالط فيها نظرتي الفاحصة في الناس، وأحاسبها على كل ذرة ترسل عليها نورها، أقول حتى اذا بلغت تلك السن، كملت هذه النظرة وبلغت من التعمق في أغوار النفوس شأواً بعيداً. وبعد ذلك طفقتُ أضع في كفتيّ ميزان، حقيقة الجماعة؛ وظللت أنظر إليها من وراء منظار مجرد من كل شائبة من شوائب العاطفة؛ لأستبين غث الحياة من سمينها! وخرجت عن كل ذلك بحقيقة واحدة، هي عدم إيماني بالجماعات مهما كان نوعها، ومهما تعددت صورها، وأختلفت أنواعها وأغراضها. وإيماني بالفرد، هو الإيمان الصحيح الذي أعتقده وأعمل بدستوره الذي وضعته لنفسي بعد تمحيص وتجربة. هذا غاية ما أستطيع أن أرد به على أولئك الإخوان الذين طالت بهم الحيرة في إبطائي عليهم الرد.

وكثيراً ما توردني الظروف موارد أتمني أن أرى ما فيها من سلسبيل وماء أجاج! فاجد فيها منية النفس، وأمل القلب وغذاء العقل .

فبالأمس كنت أتصفح كتاباً صغيراً، فوقع بصري على أبيات من الشعر فقرأتها فإذا هي للبحتري. وإذا بي أجد على بعد الشقة بيني وبين هذا الشاعر، نفساً تقاسمني هذا الشعور وهذا الرأي عن الجماعة. فمضى البحتري في قصيدته، يصف الدنيا، ويتعمق في فلسفة

صامتة عميقة؛ ويخرج من معنىً جليل إلى معنىً أجلّ، حتى أورد بيته الذي له في نفسي كل إكبار وإجلال، والذي يدل دلالة صادقة على طول المراس في هذه الحياة. فأوجز البحتري في ألفاظ شعره إيجازاً عجيباً، تبدّى من ورائه المعنى في وضوح الشمس في سماء صافية الأديم فقال :

أرى عِلَلَ الأشياء شتى ولا أرى التَجمُّعَ إلّا علةً للتَفَرُّقِ

وهكذا مضى هذا الشاعر البدويّ، يُبيِّن في أسلوب جزل هذا المعنى السامي في مثل هذا القول الموجز، وليس هناك من فرق بين معنى الشاعر، وبين ذلك الذي يتردد رجعه في جوانب نفسي عن الجماعة. فلنترك الأن رأي هذا الشاعر الذي مضت على وفاته حتى اليوم ١٠٧٧ من السنين، وفي نفسي له كل احترام وتبجيل؛ وله مني في كل لحظة من حياتي دعاء ودعاء؛ و نأخذ شاعراً من شعراء العراق الحبيب لنرى أيُّ معنى تردد في نفس ذلك الشاعر الفيلسوف عن الجماعة، حين أمسك قيثارته الخالدة وأخذ يُلقي على مسامع الكون أنغاماً عذبة هي أنغام الخلود .

لا أرى قط أن هناك فرقاً بين هذا القول، وبين ما يجيش بخاطري عن الجماعة في هذه الحياة!!

وكثيراً ما يذهب الشك بعقلي مذاهب شتى، وتمضي بي الحيرة بين جلاميد الحياة وصخور الاضطراب، حين أخلص لنفسي قليلاً، وأرى هذا الرأي المشترك عن الجماعة، والذي لا يختلف في شيء عما يدور بخاطر كل واحد منا. فالرأي الذي ارتأيته عن الجماعة أيّاً كانت، هو عين الرأي الذي كان يعتقده شاعرنا البحتري، ذلك الذي لا تربط بينه وبيني إلا صلات النفوس التي عرفت من الحياة ما يجب أن تعرفه والا فأين ربا حلوان حيث أنا، من سباسب منبج حيث ولد الشاعر الفيلسوف؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد،

فجاوزه إلى أرض الفرات، حيث يغرد الزهاوي في رياض بغداد، ويرسل ألحان الخلود في مطلع الفجر، فيشركنا الرأي في الجماعة حيث يقول:

لا نــصوّب مــن الجماعــة رأيــاً *** إن أحلامهــا مــن الأضــغاث

قلّمـا تـدرك الجماعـة مـا تـأتي *** بأعمــالها مــن الأحــداث

هذا قول لا أراه يخالف رأينا في شيء عن الجماعة، وهو إن دل على شيء، فإنما يدل على خبرة كاملة بأحوال الجماعات من الناس؛ فاخذ يسدي النصح إلى أولئك الذين لم تصهرهم جمرات التجارب في بواتق الأيام. فجاء كلامه مطابقاً لرائيين لا يتزحزحان وعقيدتين لا تمحوهما يد الزمان !!

ومضى الزهاوي في رباعياته كالسيل المنهمر من أعالي الرُّبا، لا يصده مانع، ولا يوقفه عائق، وأخذ يقول:

لقـد علمـت لـو أن العلـم يـنفعني *** مـن طـول مـا جئـت قـبلاً أدرس النـاس

إن الجماعـة دون الفـرد معرفـة *** وفوقــه بــصروف الدهــر إحــساس

هذا كلام جميل. وفيه يؤكد صاحبنا ما ذهبنا إليه آنفاً من أنه أفاد من الأيام خبراً ومعرفة ويبدو ذلك في مطلع هذين البيتين. ثم سجل رأيه في صراحة وقوة في البيت الثاني الذي هو عين الحق وعين الصواب ومن ينكر هذا القول، فهو عندي ليس من الناس في شيء.

أثبت هذا الشاعر الفيلسوف ماهية الجماعة. وبين لنا فيها ناحية الفساد في جلاء ووضوح حيث قال ( أن الجماعة دون الفرد معرفة ) وهذا هو ما نرمي إليه من كل هذا

الحديث. فإن صحَّ أن يكون في رأيي ورأي البحتري غموض، في تعريف ما يرمي إليه كل منا، فقد أوضح الزهاوي المعنى المقصود في كل ما دق وخفي!!

فالرأي عندي دائماً هو إصلاح الفرد وتقويمه. فإذا ما تم ذلك أمكن إصلاح الجماعة في غير مشقة. وإنني لن أدعوا أحداً لعدم الإيمان بالجماعة، رغم إنكاري لها في كل صورها. ولكن الذي درس وفحّص واختبر الأمور، وقاسها بمقياس العقل والتجارب، وتعمق في ظلمات الجماعة ووقف على أسرارها ودقائقها، هو الذي أعنيه وأوجّه إليه هذا الرأي لأنني لا أريد أن أفرض على أحد من الناس أن يؤمن بالشيء قبل أن يقف عليه بنفسه. كما إنني لا أجوِّز الحكم على الشيء بمجرد السماع به. فالحياة كلها أسرار غوامض والعاقل من كشف بنفسه عنها الستار .

وهنا أسدل على هذا الرأي ستارًا رقيقاً لأنني ربما عدت إليه مرة أخرى؛ فلا تزال الحياة تطلعنا كل يوم على جديد. وكفى برأي البحتري والزهاوي دليلاً على بطلان الجماعة، وتسفيه أحلام القائلين بصلاحيتها في الحياة. وفي هذا ما يكفيني مؤنة الأدلاء بالبراهين والأدلة التي تقوم بهذا الرأي الصائب السديد. فأنتم يا من تخالفون هذه العقيدة ولا تؤمنون بصلاحيتها، ليس لي ما أقوله لكم، وليس لي أن أفرض عليكم الإيمان برأي اؤمن أنا إيماناً كاملاً بصلاحيته ولكني أتركم إلى الأيام فهي وحدها كفيلة بكشف الحقائق؛ فلكم يا صحابي دينكم ولي دين!

ورحم الله الزهاوي والبحتري ورحم الله أمرأً لا يخشى في الحق لومة لائم !!

**٩ مارس :**

حين قلت بعدم إيماني بمبدأ الجماعة، كنت محقاً في كل حرف من حروف عدم الإيمان هذا. والذي يخالفني الرأي في ذلك جاهل غر، لا يعرف من الحياة شيئاً. أقول

هذا وأنا واثق مما أقوله، ولا أزال عدو المجتمع والجماعة طالما كنت ألحظ فيها هذا الفساد وهذا الركود. وليس هناك سبب دفعني لعدم الإيمان بها أقوى من الطلبة السودانيين، وخذلانهم الذي ألحظه فيهم في ربوع هذا البلد. وقد يرميني بعض الناس بالتجني في الحكم على بالجهل وعدم المعرفة، من جانب الذين يؤمنون بالجماعة؛ ولكني لا أزال أكرر ذلك في كل ساعة وفي كل مكان؛ حتى أرى أن الجماعة معناها القوة في أسمى معانيها. وسوف أسعى في تحقيق ذلك الأمل ما وجدت اليه سبيلاً. وما الأمل عندي إلا الغاية التي ارمي الى تحقيقها مهما لاقيت في سبيلها .

**١٨ مارس :**

ليس في مرامي الآفاق السحيقة من جديد. غير أن هناك وميضاً قد لاح، فرمى بنوره الضافي، في أعماق نفس طال عليها أمد المكث في ظلمات الأسى، فكساها ثوباً قشيباً من ثياب النور! ولا أزال كما كنت، وسوف أزال كما كنت، حتى أرى أن القوم قوم، وأن الرجولة رمزهم وأن معاني الشرف والنبل صفاتهم، وبغير ذلك لا أقبل منهم خلة ولا مصادقة، إذ أن كل ما أراه خداع ونفاق .

وبعد. تهادت هذه الأيام التسعة، والعالم يسير سيرته الأولى؛ والأنباء تطالعنا كل يوم بجديد! وكل نبأ فيها، دليل ساطع، وبرهان قاطع، على أن الإنسانية قد ضاعت، وأنمحى أثرها، وأن ما نراه من هذا العواء الصارخ بوجودها، إنْ هو إلا كذب وتدليس، وثوب كالغلالة لا يخفي من ورائه شيئاً.

فَسِرْ يازورق الكون بمن فيك. فلابد يوم أن تلقي مراسيك عند شاطئ آمن ساكن؛ وعند ذلك، قل للذين ماتت قلوبهم، وملك الظلم عليهم وجدانهم، عليكم أيها الغافلون مني السلام .!!

ولئن سكت عن هذا قليلاً، فهيهات أن يغيب عن خاطري ذلك الطالب الذي كان هدفاً لسهام الردى، فمات وهو في ريعان شبابه. وقد أكبرت من طلبة المدرسة تلك الروح التي حدت بهم إلى إقامة حفل تأبيني أول من أمس، لمرور أربعين يوماً عليه وكان لي نصيب في الاشتراك في ذلك الحفل العظيم الذي ضم تلاميذ المدرسة ومدرسيها، فألقيت فيه قصيدة عبَّرتُ فيها عن شيء مما ألمَّ بنفسي من هول ذاك المصاب !!

واليوم تلبدت سماء حلوان، تلبدت بالغيوم، حتى أظلم وجه الكون من تلك السحب الجوية؛ وما لبثت أن صبَّت جام غضبها على الأرض، وابلاً ما عهدته في مصر من قبل، وتساقطت في ثنايا ذلك العارض الهتان حبات البَرَد، وجعلت ترقص في أديم الثرى رقصاً قدسياً جميلاً، وذكرتني كيف هام الشعراء بهذا البَرَد وشبهوا به ثنايا الحسان! وهذه أول مرة في حياتي أشهد فيها البَرَد يهوي إلى الأرض في ذاك المشهد الشعري الجميل!! وما أن وقفت هذه السيول المنحدرة من علياء السماء حتى طالعتني مجلة الدعاية، فقرأت فيها كلمة تحت عنوان "مؤتمر عام للسودانيين بمصر" فقرأتها، ولمحت بين سطورها معنىً سامياً وقوة خارقة، وحقيقة ليس عليها غبار! فوقفت بجانبها طويلاً حتى مللت الوقوف. وتنازعتني من تلك اللحظة عوامل شتى، كنت لها نهباً وكنت لها فريسة؛ ولكني خرجت منها، على أن السودانيين الذين أورثوني السأم والملل من العمل في الجماعة، هم عين السودانيين الذين يُدْعَوْن للاجتماع اليوم ليعملوا لصالح الوطن! فليت شعري، حتى يستقر بنا السرى ومتى يميل هذا الزورق السابح نحو شاطئ أمين ؟!!

لقد والله سئمت ترداد هذه الدعوة القائلة بالاتحاد. وسئمت هذه الدعوات، وتلك الاجتماعات، التي كلما خِلْتُ فيها الخير، وتوسّمتُ فيها الصالح، لم أجد منها غير الملل!!

سيكون لي في هذا الشأن قول حاسم، لا أتردد في المجاهرة به مهما كانت نتيجته، وقد أكتب عنه بعد قليل. وحتى تحين تلك الساعة أقول لك الوداع يا قلمي !!

**٢١ مارس**

تعجبني في صديقي(ع. ط) صراحته في القول، وشجاعته الأدبية، التي كثيراً ما تدفعه للمجاهرة بآراء صائبة خطرة، وأقوال سديدة صريحة. هذا فوق ذلك الأدب الجم، المشوب بآمال الشباب الجسام؛ وقد دفعتني لكتابة هذه الكلمة، تلك المناقشات الطيبة التي كثيراً ما أُشعل وأياه فتيلتها فنبعثها ثورة حامية من ثورات الشباب العنيفة. وليس لهذه الحرب الضروس التي نؤجج نيراها، من ميدان تتساقط فيه الضحايا والأشلاء، ولكننا نتخذ من كل مكان على ظهر الأرض ميداناً نعلن فيه هذه الحرب على الموبقات المبكيات في السودان الحبيب!!

وكانت آخر معركة في مقهىً وادعٍ ساكنٍ، وكانت الوقت عندما أسدلت ذكاء الحجاب عن وجهها الوضاء. فبدأت معه والقول عن تقصير الصحافة المصرية في أداء واجبها نحو السودان العزيز . وتدرج القول حتى مضينا قدماً نحو السودان والسودانيين؛ وإذا ما ذكرت السودان فقد قدتُ نفسي بيديَّ إلى مواطن الأسى والبكاء!!

تحدثنا طويلاً عن نهضة الأدب؛ وعرفنا كيف كانت الوظائف معولاً هداماً لصروح الأدب هناك. فكم من أديب مات شهيد الوظيفة، وكم من كاتب أحجم عن الكتابة بأسباب الوظيفة.... وكم.... وكم ... وكم من نفوس سكتت عن قولة الحق رجاء بقاء الوظيفة !! فماذا بقي أذن ؟ وجلّ المتعلمين في السودان من أسرى الوظائف ؟ أذن فلابد للأدب من رجال أحرار من قيود الحكومة الغاشمة. لابد له من أبناء بررة، يعرفون أن للأدب عليهم حقاً لا بُد من القيام به! فبحثنا هنا وهناك وأجلنا الطرف في مرامي الآفاق النائية نبحث عن

رجال ينهضون بتلك الدولة الشامخة فما وجدنا أحداً. وأخيراً قلت له، والأسى يتبع الأسى، إنني، برغم عدم وثوقي بالطلبة السودانيين في خدمة بلادهم، قد استطعت أن أختار منهم نفراً قلائل يمكن الاعتماد عليهم. وهم عصارة هؤلاء الطلبة، وهم وحدهم يستطيعون أن ينهضوا بالأدب، نهضة لن يكبو من بعدها، ولن يعثر. فالتضحية هم جنودها، والفداء هم شهداؤه، والوطن جزء منهم، وليسوا هم إلا جزءاً من الوطن !!

هذا هو الذي يخفف من لوعتي، ويسكن من حرقة الحزن، كلما أبصرت بانحلال السودانيين في كل مرافق الحياة !!.

ظلت هذه الثورة الجامحة تتأجج نيرانها ويتطاير شررها، وكلما تناولنا شأناً من شئون السودان، سقط صريعاً في هذه المعركة وهوى إلى الأرض يردد ألفاظاً عجيبة، لما تبينتها عرفت منها : أضاعوني ، أضاعوني !!

تناولنا بعد ذلك نيران تلك المعركة الوطنية الهائلة، وجعلنا لها من قلوبنا خير مكمن، ومن نفوسنا اقوى الحصون. وغادرنا ذلك الميدان منتصرين فائزين، وفي قلب كل منا ميدان فسيح، ونّار تتقد، وسهام تتهاوى، ووطن يندب، وعزم لا يهون؛ ومسحنا من جفوننا دموعاً كانت تنحدر من غرب العيون... بعد أن قرأنا في صفحات، سطوراً من صفحات الوطن المعذب .. الوطن الغريب !!

## مع سيد قطب :

مضى ذلك اليوم بما فيه من لوعة الحزن، وعبرة الأسى، وجاء الأمس فكان يوماً جميلاً....!!

ذهبت وصديقيَّ (م. ف) و(ع. ط) إلى منزل الأستاذ : سيد قطب وكنا على ميعاد معه !!

الحق، لقد كذب الألي يرسمون للأديب صورة من كتاباته ومؤلفاته. كذبوا لعمري، وحسبي دليلاً على ذلك ما رأيته في صورة هذا الأديب. لقد كنت مخطئاً حقاً مع هؤلاء الذين أخطأوا. ولكن الواقع قد محى غير الواقع؛ كنت أتوهم الأستاذ سيد قطب، رجل ثائر ، طويل القامة ، قلق الأعصاب ، لا يعتني بهندامه ، يكثر من الحديث في كل شيء..

هذه صورة رسمتها للأستاذ من قصائده وكتاباته. ولكنني وقفت واجماً حين رأيت أن الواقع يخالف ذلك كل الخلاف. استقبلنا في حجرة الاستقبال على خير مايجب أن يلاقي به الأديب الأديب، فما استقر بنا المقام حتى قال أين فيكم صادق ؟ فأعدت له التحية مرة ثانية. وهنا عرفت كيف تتجاوب أصداء القلوب التي ترقى إلى قمة المجد بسلم واحد .

لقد شككت في صحة نظري حين أبصرت بالأستاذ لأول مرة. فهو وادع بقدر ما يتصور الذهن الوداعة. هادئ هدوء السيف في القراب. ليس بالقصير ولا بالطويل. قليل الكلام، وإذا نطق فعن روية وعقل. في لسانه لَثْغة تكسب حديثه طلاوة وجرْساً. تلمح في قرارة نفسه ثورة جامحة، يكسبها ثباته قوة وصراحة. هذه صورة رسمتها للأستاذ في الواقع لا في الخيال ومن شخصه لا مِن كتابته .

## ٢٩ مارس : مع سيد قطب

حالت بيني وبين إتمام حديثي السابق، حوائل جمة ، ما استطعت ردها بحال. ولكني تركتها حتى أشبعت رغبتها من البقاء معي طوال السبعة الأيام الماضية، أرتني خلالها معاني جديدة من معاني الوجود .

مكثنا مع الأستاذ سيد قطب مدة تقرب من الساعة، دار فيها الحديث عن شتى الأمور التي تتعلق بالسودان والشرق ومصر. وليت شعري، أيُّ نغم يحلو سمعه في أذني، غير نغم السودان الحبيب ؟ وأيُّ لحن يطرب له قلبي غير اللحن الذي ينبعث من قيثارة الثغور

مردداً ذكر السودان ؟ مضى الوقت ونحن ننتقل من حديث إلى حديث ، ومن عرض ، إلى تحليل، استطعت من ورائها ان استشف روح هذا الأديب، ومدى شعوره نحو السودان! تحدثنا عن نهضة الأدب في ربوع وطني العزيز، وسألنا الأستاذ رأيه في ذلك، فقال انه يشعر بالتقدم السريع في هذه الناحية، بفضل ما يصل من الخطابات من السودان. وأنه كان يستطيع الحكم بأحسن من ذلك لو كانت تصله المؤلفات السودانية، حتى يستطيع أن يعرف من ورائها الحقيقة السافرة.

وهنا انحدرت من عيني دمعة مسحتها! وانا أبسم؛ ولكنها ما لبثت أن عادت فسقطت دون اختياري! ثم عاد الأستاذ وأنحى باللائمة على أدباء السودان. لأنهم يبعثون بمؤلفاتهم إلى مختلف المكاتب، حتى يستطيع الواحد الحصول عليها بأيسر السبل، ثم أنهم بعد ذلك يبعثون بسهام اللوم إلى أدباء مصر، لأنهم لم يكتبوا عن الأدب السوداني. وهذا لاشك لوم ليس في محله. وانحدر القول بعد ذلك إلى الحديث عن تقصير الصحافة المصرية في القيام بواجبها نحو السودان، وكيف فشل مندوب جريدة البلاغ مرة في القيام بمهمته الصحفية في السودان ويعزي ذلك إلى أن حكومة السودان أخفت عنه اهم الأخبار والشئون !! ثم مال بنا الحديث عن بعض أدباء السودان. فذكر منهم المرحوم (معاوية) وقال أنه كان بحق أديباً مثقفاً، وأن نظرته إلى الناس والحياة كانت نظرة تشاؤم.

وذكر أنه كان يلتقي به كثيراً عند العقاد، وأنهم كانوا يطلقون عليه لقب (النابغة السوداني) وهنا بدت على الأستاذ دلائل التأثر الشديد، كانه عاد بالفكر قليلاً إلى الوراء فذكر أياماً قضاها مع هذا الأديب المرحوم! وهنا ذكرنا له أن السودان منكوب في أبنائه النابغين. فكلما بدأت دلائل العلم والنبوغ على واحد منهم، سدد الردى سهمه ورمى به

في سويدائه! أقال الله عثارك يا وطني وجعل لك من أبنائك الباقين خير العزاء عن الماضين !

ثم تلا علينا الأستاذ قصيدتين من أروع الشعر، واحدة في استقبال بطل من أبطال السودان ورجال عام ١٩٢٤م، ألا وهو الضابط علي عبداللطيف. والثانية سكب فيها دمعة حارة على الشيخ " العبيد" وكيل جمعية اللواء الأبيض الذي مات في منفاه في جنوب السودان، تأكل الحشرات اللاسعة من جسمه، وتفتك الأمراض به، بل وفوق ذلك كان يُسَخَّر في قطع الحجارة والسدود في تلك البقاع. وهكذا شأن كل حكومة غاشمة مع الرجال العاملين .

وقد كتب الأستاذ لهذه القصيدة مقدمة رائعة بيَّن فيها صفات هذا البطل، وبيَّن فيها أيضاً تقاعد الشباب المصري وتخاذله ـ في ذلك الوقت ـ عن نصرة الحق في حين ثار فيه السودان ضد الإنجليز في سبيل مصر والمصريين! وقد بكى الأستاذ بكاء مراً في هذه القصيدة، دلَّ دلالة واضحة على ذلك الشعور الذي يحسه نحو السودان .

ثم تحدثنا عن الحياة في مصر وعن مدى نظرتنا إليها. وكان رأي الأستاذ في ذلك، أن نتغلغل في أعماق الحياة الاجتماعية هنا حتى نتعرف إليها، وإلى مواطن الضعف والقوة فيها.

وهذا بلا شك رأي جميل، وهو ما أرمي إليه دائماً في كل ساعة من ساعات حياتي. لأن الرجل الذي يكون في الوسط الذي فيه أجهل من الطفل الرضيع بمعنى الحياة، لا يمكن ان يُسمى كائناً من الكائنات الحيّة أو الميّتة! فالرجل يجب أن يكون ـ على أقل تقدير ـ مُلِمَّاً بما حوله من تصاريف الحياة، واقفاً على مدى تقدم القوم وتأخرهم. وعلى شيء من أخلاقهم وطباعهم، حتى يستطيع أن يسلك طريقه في الحياة وبين الناس!!

وذكر أيضاً أن الحياة الأدبية في مصر هي خير بقعة نتزود فيها بزاد الأدب. لأن المدرسة في نظره - وفي نظري - شيءٌ لا يعد ولا يقاس بجانب الدراسات الفردية! وهذا بلا شك قول جليل!

ثم ختم الأستاذ حديثه باستعداده لنشر أي إنتاج نقدمه إليه في الصحف المصرية، ليكون ذلك حافزاً لنا في النشاط الأدبي.

كما أبدى استعداده أيضاً للاشتراك في الصحف السودانية حتى يكون واقفاً على الحركة الأدبية وغيرها في ربوع السودان .

وأن نبعث إليه بقائمة بأسماء المؤلفات السودانية ليتحصل عليها، وليعرف بها شيئاً عن الحركة والنهضة الأدبية أيضاً.

فمتى يا وطني تذخر رحابك الواسعة بمؤلفات أبنائك الذين أقعدهم الكسل والخجل، والخوف من الانتقاد، عن تحرير الكتب العديدة، والله يشهد أن عقل السوداني من أرجح العقول، وأن عقل السوداني من أقوى العقول وأكثرها استعداداً للإنتاج ؟

متى يا وطني يضحي أبناؤك بالوظائف في سبيل الأدب والنهوض بدولته ؟ والتاريخ يشهد أن السوداني أول من يضحي في سبيل مبدأ من المبادئ السامية؟ أي شيء دهى أبناؤك يا وطني وأي خطب عراهم ؟ وأي مصيبة نزلت بهم فسدّت عليهم الطريق إلى التضحية والتضحية بكل غالٍ عزيز؟!...

خرجنا بعد ذلك من منزل الأستاذ سيد قطب ، بعد ان ودعنا وداعاً جميلاً دل على سموٍ في النفس والأخلاق، وعلى كرمٍ في النّجار، وقال أرجوا أن يكون بيتي هذا بيتكم، وأن تكون داري داركم، فإن وجدتموني، فأدخلوا، وإن لم تجدوني فأدخلوا بغير استئذان. لأن صاحب المنزل لا يستأذن أهله في الدخول فيه، وهنا عرفت تواضع هذا

**الأديب، الذي أبى أن يقول إن مئات من الكتب توجد عندي، فتعالوا وأغرفوا من مناهلها العِذاب، لأنني قرأت في ملامحكم دلائل العلم والأدب، وفي وجوهكم سموّ الأخلاق، وطهر النفس، ورقة الشعور، ونقاء الضمير، وحسن المعاشرة، وحب الوطن!!!**



**٣١ مارس**

أمس ولّى، وغد ما يزال يتستر خلف استار الغيب المحجبة عن أعين الناظرين، ولم يبق من هذا وذاك، إلا حاضر مؤلم محزن، يفيض بالأسى والشجون، ويجعلني أسمو بنفسي التي دأبها السمو إلى ما فوق مراتب البشرية التي كلما فكرت في أمرها توزعتني الهموم، وتقاسمتني النوائب!.

الوجوه كالحة متغيرة. والنفوس مريضة عليلة. والضمائر بين الجوانح كالرفات في ظلمات الرموس والأجداث .

الكون أغبر أسحم، وضوء الحياة المشع من أعماق الأبدية يخترق سجوف نفسي، حتى يستقر في أعماقها من غير لون!!

هكذا أخذت مواكب الكون ترتسم في عيني! ومن يدري فربما كان الغد خيراً من الأمس.!!

مضى يوم البارحة يختال في سبيله عجباً. لأن روح الشباب بدت فيه في ثوب قشيب جميل! فقد كان يوم أمس يوم افتتاح البرلمان، أو يوم الأمة. لهذا أضرب الطلبة عن الدراسة وذهبوا لمشاهدة موكب افتتاح البرلمان. وفي تلك اللحظة مرت بنا مواكب القصر الملكي عربة المليك فالأمراء فالملكات.

وقبل ذلك أنصتنا لخطاب العرس فكان في الواقع جامعاً لكثير من الأمور التي تهم البلاد. وفي أثناء ذلك ذرفت دمعة الحزن، حين ذكرت كيف يسير الحكم في بلادنا على يد الإنجليز، تحت ليل من التكتم والإخفاء! ولكن الذي هوّن ذلك أن في الأعماق أملاً وعزماً وإراد،ة ستعصى على كل هذه المخازي. وأذكر إنني بعد العودة من القاهرة إلى حلوان وبعد أن أخذت من يد البوليس ضربة مرة، وقبضاً مرة أخرى، أذكر بعد كل ذلك

إنني طفقت أتحدث حديثاً طويلاً مع أحد الزملاء وهو (ح. ع) فجعلت أطرق مواضيع شتى من المواضيع التي تتصل بتكوين الرجل الحق كالتزام الصدق، وحرية الرأي والفكر، والوقوف على دقائق الحياة وما لم يدق فيها، وعدم الحكم على الشيء برأي يبديه آخر، ومجاملة الناس فيما يقتضيه قانون الكون، إلى غير ذلك من الصفات الرجولية البحتة. وهنا آمنت بساعات التجلي وآمنت بأن للنفس جزءاً من وقتها تخرج فيه عن عالم الناس إلى عالم آخر غير محدود، ولا محاط بسياج البشرية البغيض. ولكنه عالم غير محدود... لأن الكلام الذي اندفعت أقوله في تلك اللحظة ما أمكنني أن أعيد جزءاً منه في ساعة أخرى!.

وهكذا فللنفوس كما للقلوب أعياد ومواسم، تتمرد فيها عن كل ما يجلب الحزن، وترتدي فيها كل ثوب من أثواب السرور واللذة والمتعة!.

فدومي أيتها النفس الطاهرة على هذا العهد وهذه السُّنة. ففي الساعات التي تنجلين فيها أكون أسعد مخلوق يمشي على الأرض. لا لشيء إلا لأنني أحيا من خلالها في دنيا غير دنيا الناس، في دنيا الخلود وعالم الحرية الذي تتلاعب فيه ملائكة الشعر. وترقص فيه كواعب السعادة على أنغام حلوة يبعثها مِزْهر النشوة، فترددها آفاق الحياة الأبدية، ويتجاوب رجعها في أعماق الزمان الحالم، فلا يلبث أن يتمايل طرباً وعجباً، زورق البشرية السابح في خضم الدهور من غير هادٍ ولا دليل .

**أول أبريل** :

.... وفي هذا اليوم تسبح بعض العقول في سماء بعيد، لتبحث عن ابرع " كذبة" تلقى بها في مسامع الناس، ولكن، ليت شعري، متى صفت قلوب الناس، وطهرت قلوبهم ونزهت ضمائرهم، وتجردت إحساساتهم، من أوشاب الكذب والرياء والنفاق والملق؛ حتى يتخذوا لهم في العام يوماً يكذبون فيه، والعام يشهد أنهم ما صدقوا يوماً في قول به ينطقون،

أو إحساس عنه يسكتون. كيف جاز لهم أن يسندوا لأنفسهم فضيلة الصدق، ويضعوا تاج الشرف الذي أحكمت صنعه أنامل العز والكرامة، على تلك المفارق، التي ما أفعم ما بداخلها إلا بالرذائل، وإلا بالمكر والا بالخداع؟!

الناس هم الناس أين حلوا، وأين ساروا! فهيهات أن يغني عنهم هذا البهرج الذي ينتحلونه لأنفسهم، ولا هذا الثوب الزائف الذي يرتدونه!

فهذه الكذبة التي اعتادوها كل عام، إن لم تدل على شيء، فحسبها أنها دليل على مكرهم ونذالتهم وسوء ضمائرهم الميتة التي يحملونها بين الجوانح! وتروي الكتب . وهذا لا ينسخ الفكرة التي ذكرناها آنفا . أن تاريخ هذه العادة يرجع إلى أزمان بعيدة؛ وقد ذهبوا في تعليلها مذاهب شتى. فتارة يقولون إن أول أبريل كانَ في عهد من العهود نهاية عيد من أعياد الربيع في كل عام، ولذا فإن الناس يحتفلون به في مثل هذه الصورة التي فيها كثير من المزح. وتارة أخرى يقولون . وهو ارجح الأقوال . إن " شارل مارتل" أعلن في عام ١٥٦٤م بطلان التقويم القديم الذي كان يبدأ في أول أبريل من كل سنة. غير أن بعض الناس لم يوافقوه على ذلك، وأخذوا يعملون على مبدأ التقويم القديم أيضاً. فكان أنصار التقويم الجديد يسخرون بهم و يهزأون من تمسك هؤلاء القوم بذلك المبدأ العتيق، فكانوا يبعثون اليهم بهدايا زائفة، وبأقوال لا أساس لها من الصحة والواقع، كأنهم يشتركون معهم في سرورهم المزعوم بتلك الصورة التهكمية اللاذعة!!

وبعد اتصال الشرقيين بالغربيين منذ ذلك الحين، سرت هذه العادة وأسموها "كذبة أبريل " واخذوا يتفنّنون في اختلاق الأكاذيب فيها !!

وهناك أيضاً تعليل آخر لهذه التسمية. فحيث إنها عادة غربية فأنها تسمى عند السكسون باسم April fool أي (مغفل أبريل) وهو نوع من الطيور يسهل صيده في ذلك

الشهر. كما يطلق عليها الفرنسيون اسم " سمكة أبريل " Poisson d`avrilويعللون ذلك أيضاً بأن كلمة poisson اصلها passion ومعناها العذاب. وهم بهذا يشيرون إلى السيد المسيح وما لاقاه من عنت وعذاب، حين ذهابه من محكمة إلى أخرى رغبة في زيادة التنكيل به وكان ذلك في أول أبريل .

ومهما يكن من شيء، فقد يكون صاحب كتاب فلسفة الكذب، قد توصل إلى شيء من الحقيقة، بما استقيناه منه ومن غيره من الكتب في معرفة أصل هذه العادة. غير أن هذا لا يمنع بحال، من أن نقول رأينا في صراحة عن الناس سواء عندي أكانت كذبة أبريل هذه مخترعة أم مقتبسة .

فإني لا أزال أكرر في كل ساعة أن هم الناس، وأن توصلهم إلى الكذب عن طريق " كذبة أبريل " لعلمهم أن شيوع العادة يذهب بسبب تحريم الكذب فيها" إن في ذلك الطريق البغيض الذي سلكوه، لأبلغ دليل على تلك النفوس العليلة التي يحملونها، وتلك الضمائر السوداء التي لا تقودهم إلا إلى موارد الهلاك والموت !!

**٥ أبريل :**

أنا الآن في مقهى صغير من مقاهي حلوان، وفي ركن من أركانه جلست أكتب هذه الكلمة. ولكنني ما كدت أفعل ذلك، حتى خطر لي خاطر، ذكرت فيه إنني كتبت إلى أحد أصدقائي بالسودان وهو الأديب (ع. ع) خطاباً ذكرت له فيه نبذة عن المقاهي هنا. وقارنتها بتلك التي في بلادي الحبيبة. كتبت له ذلك، وأنا متوزع بين الحسرة والألم، واللوعة والأسى، كنت كذلك والله، حين رميت بالطرف هناك في ربوع السودان، وأجلت النظر في مقاهيها. وكيف لا أكون في مثل ذلك الحال، والدمع لا يلبث أن يتصبب طائعاً

مختاراً كلما خطا صاحبه باحثاً عن مقهى بمعناه؟! ليست المقاهي عندنا إلا بؤرة للفساد، ومقراً لا يرتاده إلا الصعاليك والسفهاء!، هذه هي فكرة الآباء والأجداد عنها .

ولهم في ذلك الحق، لأن الثمار التي جناها أبناؤهم بعد ارتيادهم هذه المباءات، لم تكن ناضجة حلوة؛ ولكنها كانت تخفي وراءها السم الزعاف، الذي ما لبث أن أمات فيهم الإحساس والشعور والأخلاق !!

هذه صورة سريعة كلما تمثلتها بعثت في نفسي صنوفاً من العذاب. وتمنيت .. وتمنيت ان أرى مقاهينا معاهد نتلقى فيها دروس الأخلاق والشرف، ودروس الأدب ... ودروس الحياة... رغبت في أن أرى مقاهينا دُوراً يرتادها ذوو الأخلاق القويمة والأذواق السليمة .. وددت أن أرى أدباءنا وعلماءنا ورجال الصحافة عندنا، يجلسون في مقاهي، لا تحمل في الواقع إلا اسم المقهى؛ ويكون باطنها الجدال والنقاش في أدب واجتشام، وددت من صميم نفسي أن يكون لنا ذلك وأكثر من ذلك، فنرى في شتى النواحي، كما نرى في مصر بار اللواء ومقهى السلام، وبار الأنجلو، وجروبي، والأمريكيين، ونادي محمد علي، والفيشاوي وغيرها من مقاهي الأدب أو مجالس الأدب ... فتموت بعد ذلك أشباح القمار، فيصبح حال الأسرة البيوتات، الأمر الذي جعل منا أردّ نوع من أنواع الأسر والعائلات !!

حبذا يا زمان لو جُدت بهذي المنى! وحبذا يا زمان لو تركت العناد! وأرخيت العنان، فقومت فينا هذا الاعوجاج، وأصلحت فينا هذا العيب، فإنك إن فعلت ذلك، استقامت حياتنا، وصلح عيشنا، واصبحنا في حال نُغبط عليه، فما بذور الخراب تنمو إلا في المقاهي، كما أن الجراثيم لا تتكاثر إلا في الأوساخ والأوساخ !!

غير أن هذه الحركة الفكرية التي بدأت تنمو في ربوع البلاد لتبشر بالخير والصلاح، والقضاء التام على هذه الموبقات!.

واذكر أنني بعد أيام تسلمت من ذلك الصديق (ع. ع) رداً على خطابي الذي بعثت به إليه. فلمست فيه روحاً حية تبشر بأن في الشباب من يمكن أن يعتمد عليهم الوطن في الظلمات والنوائب. لقد نعي صديقي على الشباب تلك الروح التي أخجل أن أراهم فيها. فقاسمني الشعور وشاركني الإحساس، وكذلك تآلفت القلوب التي لا ترجو الإ صلاح الوطن وإلا نصرته وإلا حريته ....!!

وقد خفف كثيراً من نيران تلك الثورة التي تأججت نيرانها في نفسي من فرط هذا الشعور الأليم، حيث ذكرني بأن مصر لم تجن هذه الثمرات اليانعات إلا بعد أن أدمى أبناؤها الأكف والأقدام، ودفعوا في سبيل ما حصلوا عليه أثماناً غالية. وهيهات أن يجني الشهد مَنْ لا يذوق الكثير من إبر النحل !!

وهنا قلت لنفسي صبراً ولا تجذعي ... فهذه الروح التي ترف بأجنحتها القوية على قلوب الشباب، لتبشر بالخير والنعيم وتؤذن بانتشال هذا الوطن الحبيب من هدة الجهل، إلى ذرى العلم، ومن ربقة العبودية إلى فضاء الحرية .. وسلام عليك يا وطني يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً..

**٨ أبريل :**

لست أدري ، علام أبكي في كل يوم وأضحك. لقد صرت والله في تصاريف الكون، حتى إذا أعيتني الحيل، وقصر إدراكي عن الوصول إلى غاية أقف عند سرها، استسلمت للأقدار، وحدثت نفسي بأن أعود إلى حيث لم أستطع ولوج الآفاق المحجبة!!

غموض الكون وأسراره الكامنة في أعماق الغيب، وسير الحياة في هذه السبل المعرجة، والأثواب المتباينة التي يرتديها الناس يوماً بعد يوم؛ كل هذه الأمور صيرتني في حيرة من أمري فهل عليّ عتب بعد ذلك في الضحك والبكاء ..

لحى الله الذكرى، فكثيراً ما تذهب في حيث لا أريد الذهاب، فلنتركها الأن ففيها الأسى وفيها السلوى !!

كان أمس الأول، يوم شم النسيم، فلبست الحياة ثوباً فشيًا من ثياب المتعة والجمال. فالكل ضاحك باسم مسرور إلا أنا !! أنا الذي ما ذقت في الحياة لذة حتى اليوم!! أنا الذي أبكي حين يضحك الناس ويمرحون! أنا الذي ما عرفت معنى الحياة إلا في الألم؛ ولا أدركت جمال الكون إلا في الأسى !!

مضى ذلك اليوم بخيره وبشرِّه. وما أن بقيت فيه إلا صبابة، حتى اجتمع الطلبة السودانيون بالمدرسة؛ وفي ساعة جميلة مرحة، أخذنا نسمر ونتحدث عن شتى الأمور التي تهم السودان. وتناول الحديث مسألة العلاقات بين السودان ومصر. وأيهما أجدى للسودان، إبقاؤه على حاله هذا، أم اندماجه على مصر ليكونا بلداً واحداً؟ وذهب القول في هذا الموضوع مذاهب عديدة وأما أنا فلي فيه رأي قد لا أُبديه اليوم !!

والذي أثار هذه المسألة، هو عدم اشتراك الطلبة في الكتابة في مجلة الدعاية. ويزعمون أن السبب في ذلك، هو أن مبدأ أصحاب المجلة لا يتفق ومبدأهم الذي لا يقول بجعل السودان ومصر قطراً واحداً. وعلى كل حال، فإنني لا أريد الكتابة في هذا الموضوع بالذات، لكي لا أسجل على نفسي قولاً لا اؤمن به. ولكنني أترك الكتابة إلى زمانٍ آخر، فقد تتجدد الفكر والآراء في هذا الموضوع وبعد أن نقف على سير الأمور الطبيعي، فهناك يمكن الحكم بكل سهولة .

ثم جاء اليوم، وفي فترة من فترات الدراسة تحدث أحد الأساتذة عن عيوب التعليم في مصر، وكأنه يتحدث بوحي صادر من نفسي، وشعور أحس به دائماً. فقد نص على وزارة المعارف تمسكها بهذا المنهج الذي تسلكه في نظام التدريس، من حشو عقول التلاميذ

بمختلف العلوم، إلى إرهاقهم بهذا العمل المتواصل الذي يقوم به الواحد فيهم وهو ساخط على العلم والمعلمين! إذ ما معنى أن يدرس الطالب مثلاً ثلاثة علوم اجتماعية وأربعة رياضية وثلاث لغات لا تربط بينها آصرة !؟ لا أعتقد هناك معنى لهذا سوى أن العقول التي تدير دفة الأمور، قد خوت على عروشها! فلو كان هناك حسن تصرف في النظام لكان خليقاً بأن يدرس التلاميذ طول العام عصراً واحداً من العصور العربية كعصر العباسيين أو الأندلسيين ...الخ. فهذا الحشو الذي لا يجدي كانت نتيجته العكسية متجلية في هؤلاء الذين يملأون الكراسي بأجسام لا عقول فيها. وهذا هو الواقع الذي لا يحوم حوله شك .

وهكذا يكون نصيب المجتمع من العلم. وهو كما يبدو نصيب فاسد لا قيمة له. وويل للمجتمع الذي لا يجني من أبنائه إلا الويل والثبور!!

يقول هذا الأستاذ . وهو مصيب فيما يقول . لو تركت لنا حرية التدريس، لأخرجنا رجالاً نافعين. ولكن الكتب المقررة على التلاميذ، لا تساوي شيئاً بجانب الموضوعات الجسيمة التي يتناولها الكتاب في شيء من الإيجاز عظيم !!

فالوزارة هي المجرمة في حق العلم والطلبة والمعلمين. والواقع، كل ما ذكرناه صواب لا فرية فيه. وكثيراً ما يتفق رأي المعلم والطالب على شيء، لا يخفيه إلا السكوت. وهذه الحقائق التي ذكرتها، هي بعينها التي كانت تتخذ من عقلي مهاداً تستقر فيه !

فنظام التعليم كما هو ظاهر من هذا، فاسد لا يقوم على أساس. فلو إنه سلك الطريق الذي تسير عليه المدارس الغربية في جل نواحيها لكان نصيبه النجاح و الفوز. ولكنه سلك طريقاً محفوفاً بالإبر والأشواك؛ فلا بد للذين فوق رحاله من التجريح والتقتيل!!

وقد يكتب الله لهذا الزورق السابح العباب نجاةً لا يضل بعدها، وهدىً لا غواية فيه. فلو كتب الله له هذا النصر والفوز، فقد تضمن البلاد النجاة من هذا الخطر المحيق بها، وتنجو من ويلات تكاد تودي بحياتها، وحياة الأمة وحياة المجتمع!!

**١٢ أبريل** :

...ومضي استأذنا يتلو علينا كلمة صغيرة للدكتور طه حسين تحت عنوان( ضمائر) وما استرعي نظري غير هذا العنوان العظيم الذي ما غاب ذكر ما تضمنه عن خاطري لحظة واحدة من الزمان .

لعب الدكتور طه بالمعاني كما شاء، شأنه في ذلك شأن العباقرة، الذين يُحلِّقون بعقول الناس في فضاء بعيد. فأبدع وأوجز الغز، وجعل البطل في هذه الحومة ( التلميذ الفتى وأستاذه الشيخ) فعرض صورة تحليلية جميلة لتلك الضمائر التي طالما جنت على أصحابها؛ استغفر الله بل التي طالما جنى عليها أصحابها فقتلوها بأيديهم واتخذوا لها من جوانحهم أجداثاً يدفنون فيها الرفات!!

فهذا طبيب طغى عليه سلطان المادة، فشغله عن القيام بما يفرضه عليه الواجب نحو المرضي ... فلا الجراحات باسرها ولا الخوف ينتزعه من نفوس المرضى، ولا البشاشة يبديها فتخفف من آلام السقام!!

وذاك مرؤوس، ماترك ثوباً من أثواب الرياء والمداهنة والتملق إلا ارتداه .

وذاك تلميذ أجرم في حق أستاذه ورماه بما ترمى به وذاك صديق. آه ... وجد أن الابتسامة هي كل ما يستطيع ان يدفعها ثمناً للصداقة فابتسم، حين وجد أن الحياة بين الناس كلها نفاق وخداع!!

وهذا ضرب من الأدب حبذا لو سار على منواله الأدباء. ففيه الشفاء من أدواء المجتمع وفيه بعث ونشور للضمائر الميتة!!

**حسن البنا / دار الإخوان بحلوان**

**١٥ أبريل**

ذهبت بالأمس إلى مكان الدعوة التي وجهتها جماعة الإخوان المسلمين بدار السينما المسقوفة عصر ذلك اليوم بحلوان. وهناك استطعت أن أستمع إلى حديث جميل مشرق عن الرسول عليه السلام بأسلوب يغاير تماماً أسلوب تلك الاحاديث التي نسمعها عن المدعين .

تحدث الأستاذ حسن البنا عن شيئين لايزال اثرهما في نفسي حتى الساعة. وكم أحببت أن يسمع الناس مثل هذا القول.

فالناحية الأولى كانت عن "القيادة" وكيف يكون الرجل عظيماً يقود الأمة والقلوب معه. فجمع ذلك في ثلاثة أشياء وهي : الإخلاص، و الحماسة، والكفاءة . وبيّن لنا بالأمثلة القرآنية والحوادث التاريخية، كيف اتصف الرسول الكريم بهذه الصفات فكان يسافر بين البلدان، ويزور الناس في بيوتهم داعياً لهذا الأمر الذي آمن به. فلا ينام الليل إلّا قليلاً؛ ولا يرتاح له خاطر من أجل هذه الدعوة إلا غرارا وجمع بعد ذلك الرجولة الحقة في أجلى معانيها، والكفاءة التامة التي تؤهله للقيام بمثل هذه الأعباء. فكان الرسول (ص) بعد ذلك اعظم قائد عرفه التاريخ!

وتحدث الأستاذ عن ناحية هامة هي المبدأ الذي قام عليه الإسلام ودعى إليه فخلص ذلك في ثلاثة أسباب جليلة هي :

أن رسالة الإسلام هي أسمى الرسائل، وأن المسلمين هم خير أمة في الأرض، وأن الجهاد في سبيل ذلك واجب، والله وحده هو الذي ينصرهم! فهذا دستور شامل، وكلام واقع .

ولولا إيمان المسلمين به في ذلك الوقت، ولولا عملهم على القيام بما جاء به، ما كان لهم ذلك النصر والفوز المبين !!

وتطرق الحديث إلى الرسول الدبلوماسي السياسي : وكيف كتب عنه المستشرق نيكلسون كتاباً عظيماً شهد فيه ببراعة الرسول في الأمور الدبلوماسية. وفوق ذلك، كان الوحي لا يألوا جهداً في النزول عليه من عند الله مرشداً ومعيناً!!

أفاض الأستاذ وأبدع في هذه السيرة؛ وفي ذلك الوقت ذكرت السودان، ورجال الدين فيه، وكيف قعدوا عن القيام بواجبه من وعظ الناس وإرشادهم؛ فجنوا بذلك على الإسلام شر جناية؛ فقمت من مكاني مدفوعاً بهذه العوامل واستأذنته في أن أقول كلمة فأذن ثم قلت: إن المسلمين في جميع بقاع الأرض في حاجة لمن يرشدهم ويهديهم سواء السبيل. وإني استحلفك بالله العظيم والقرآن الكريم، أن تزور ذلك الوطن الجنوبي ، وذلك السودان لينهل أهله من هذا المعين. فستجد قوماً تفتحت قلوبهم وبصائرهم للأيمان؛ قوماً يرحبون بمن يدعو إلى دين محمد في هذه الصورة التي لايرضاها القائمون بالأمر فينا. ولا يخفى أن للسياسة يداً كثيراً ما تلعب بالقلوب فتلقي عليها غلالة رقيقة تحجب عنها قبساً من النور. فإنني أكرر لك الدعوة بزيارة ذلك الوطن وإني باسمه لك من الشاكرين .

فهتف الرجل بعد انتهائي من هذه الكلمة قائلاً: الله أكبر ولله الحمد. فردد الحاضرون هذا الهتاف، ثم قال إني أشكرك يا بني وأسال الله أن يوفقني لتلبية هذه الدعوة.

وبعد انفضاض القوم، بعث إليَّ بمن يدعوني اليه، فأجبت. فكرر شكره ثانية وقال( أن ابن حمد يس الصقلي) كان يحن إلى بلده حنين المشتاق فقال في ذلك شعراً جميلاً) وانشدني أبياتاً معناها : لو كنت حراً في بلدي أفعل فيها ما أريد وما يمليه الضمير والعقل والقلب ، لفعلت كذا وكذا .

فعرفت ان الرجل رجل خطير – فودعته وانصرفت وسألت عنه بعد ذلك فعرفت حقاً انه رجل خطير فقد تدخلت السلطات الإنجليزية في أمر انتخابه نائباً عن بلده؛ ومنعته عن ذلك رغم التعضيد الشديد، والثقة التامة، التي يوليها له الناس. وعزمت على أن اتصل به، لأرى إلى أي حد تبلغ به نفسه الكبيرة، وأساله عن رأيه في زيارة وطني الحبيب!!

وآمنت كما كنت أومن من قبل، أن الزمان لا يعاند إلا الرجال. وأن العاملين دائماً هم محور سخط وغضب الإنجليز؛ وأن الأكفاء على قلتهم في الحياة، هم مصب أنهار الحسد والسخط والعناد!!.

وانتهى ذلك اليوم بخيره. وأرضيت ضميري بتلك الدعوة التي وجهتها إليه، لأنها أرضت وطني ورضاء الوطن عندي فوق رضاء العالم أجمع. فإن هو رضي، فلا يهمني بعد ذلك غضب الناس أو سرورهم. وهل بعد الضمير الحي، والوطن الغالي اكتراث لشيء!؟

لا ، لا ... !! معاذ الله ....! فهما كل شيء في الحياة عندي!!

أقول انتهى ذلك الأمس وجاء اليوم، وفيه تسلمت خطاباً من صديقي " عمر رجب". فكان شاملاً لمرافق الحياة التي تهمني وأي مرافق تهمني غير البلد العزيز؟!

أبكاني والله، وأدمى فؤادي، حين قال: " يا للأسف" !! لا يمكنكم أن تشهدوا افتتاح سينما برامبل الجديدة بميدان البوستة لأنه (أي البناء الشامخ الذي تحدي ٧ ملايين نفس قد تم بناؤه) أبكاني والله حين قال. هذا وكيف لا أبكي، وهذه المآسي تتجدد يوماً بعد يوم؟ وهذه الألاعيب التي يقوم بها الإنجليز تمثل كل يوم على مسرح السودان؟؟ كيف لا أبكي ولا أنتحب ولا أموت حزناً على هذه المذابح البشرية الهائلة؟

أنا إن بكيت اليوم فسأضحك غداً! فالشهد لا يُنال إلا بعد لسع النحل. والسعادة لا تجنى إلا بعد شرب الصاب والعلقم. والخلاص من هؤلاء البرابرة، لا يمكن إلا بعد أن تتجرع منهم مرارة هذه البربرية الدالة على نذالة أصلهم. ففي غد ستثور النفوس الأبية، وتتجهم الوجوه، وسيرى هؤلاء الأنذال إن صولة الحليم لا ترد، وثورة الراضي بالألم لا تنتهي إلا بالهلاك والموت الزؤام !!

ثم ألغز صاحبي في خطابه وقال: ( دوائرنا الدبلوماسية السودانية نشطة جداً وقد تلقت ضربات قاتلة في هذين اليومين. وعلى كل فالحمد لله الذي تكون لنا رأي عام) هنا فهمت كل شيء. فهمت أن السودانيين بدأوا يحسون من قرارة نفسهم، أنْ لا بد من الخلاص من كلاب الغرب. وهذا الشعور هو شعور الأفراد، والرأي العام يتكون من هؤلاء الأفراد! وعرفت أن الحكومة تنبهت إلى هذا الخطر الذي يهددها، فأرادت زجرهم، ولكن هيهات. فسيل القلوب سيل لا تعوقه الربا والنجود!! ويجمعون فيها آلات الخراب ليلحقوا ببني- التايميز ضرراً بليغاً فشكرت الله على ذلك شكراً كثيراً وعرفت غير ذلك الكثير، من مثل ما كتبه هذا الصديق الأديب.

الحمد لله الذي جعل لنا من امتنا الكريمة رجالاً وقوماً أحسوا بالضغط، فبدأوا يشعلون النيران التي لا تخمد ولا تنطفيء!



## بعد تسعة شهور

### ١٧ يناير ١٩٤٣م

لا أملك لنفسي عذراً ادرأ به مثلبة التقصير عنها، طوال هذا الوقت الذي ما جرت فيه شفاه اليراع في وجنات الطرس. أنا ألوم نفسي على ذلك أشد اللوم وأعنفه، ولا أجد لها عذراً - كما أسلفت - أبرر به مقدار هذا الخطأ الذي ارتكبته، ولكن قد تمر بالفتى ظروف لا يستطيع معها الوفاء بما يريد. وقد ينسى هذه العوائق إذا ما طال به الزمان وأراد أن ينحى على نفسه باللائمة أو يجد لها عذراً .

على أي حال أنا معترف بتقصيري، وسأحاول جهدي أن أسير في تدوين الحوادث التي مرت خلال هذه الفترة الطويلة، كما لو كنت أكتبها ساعة حدوثها. لأنها الآن ترتسم في مخيلتي، وتتجسم حتى لأكاد أحسها والمسها بيدي. فكأنها حدثت كلها دفعة واحدة، وكأن لم تفصل بينها تلك الأيام الطوال!!

سأكتب عن كل ذلك بعد قليل!!.

### ٢٨ يناير ١٩٤٤م :

هذه أول صفحة فيك أيها العام الجديد، أفتحها أمامك في خشوع وإجلال وإكبار؛ وسأنصت إليك بالسمع والبصر والقلب، وسأكتب ما تمليه عليّ في أمانة وصدق، وفي شرف وعزة وكرامة!!

أما أخوك الماضي فقد جاء بكل شيء وذهب !! وبحثت عنه فما لقيته... فأين هو اليوم مما أنت فيه ياعامي الجديد!!

أيها العام المنصرم أسوق إليك عذري، وأهدي إليك أول كلمة كتبتها فيك...

**٥ فبراير :**

سأرجع بالفكر إلى ما وراء عام وثلاثة أرباعه، أجوس في معانيه باحثاً في نواحيه عن بنات الزمان، وعن دِمَنٍ توارت عن جمال قصورها الأيام، وطلع عليها الصباح فاذا هي أطلال دوارس وصروح طوامس .

هجرت القلم منذ تلك اللحظة الرهيبة التي جافتني فيها الخواطر، وتناثرت فيها عقود المعاني من نظيم الكلام، وأسبل فيها اليراع آخر دمعة من عينه الثرة، وفؤاده الكليم!! فماذا حدث يا يراعي الأمين طوال هذا الأمد الذي جفت فيه من عينيك الدموع الغزار!؟ كان أن هجرت ربوع حلوان ذاهباً إلى السودان، فما أن استقر بي النوى في تلك الربوع الحبيبة، حتى أخذتني نشوة الأسفار والترحال فهجرت أم درمان بعد صولات على صفحات جريدة النيل والصوت، وسافرت إلى اسمرا ومصوع وقضيت فيها ما يقرب من الشهر. ثم عدت أدراجي إلى السودان ولست أنسى ذلك الموقف الذي جادت به الأيام وأنا في طريقي بالسيارة من أرتريا إلى كسلا، وخلاصته أن السيارة التي كانت تقلنا، حدث بها عطب مفاجئ في منتصف الطريق الموحش المقفر، فتوقفت عن السير منذ الصباح ومن عجب الأقدار أننا لم نحسب لذلك حساباً لأن المدة التي قدرناها لوصولنا لا تتجاوز الساعتين بكثير. وكان الوقت صائفاً، ورمضان الكريم ضارب بأطنابه في رحاب المسلمين! فأخذ الوقت يمضي كالسيف وبدأت أشباح الجوع والعطش تلوح لنا في دنيا الوقت الملموس! غابت الشمس، ونحن نترقب كلمة السماء الأخيرة حتى إذا مرت بنا سيارة مسرعة دون توقف رمى لنا بعض من فيها قطعة من البطيخ، فكانت على قلتها دليلاً على أن عين السماء لا تغفل أمر الأرض وأبنائها، حتى ولو كانوا في مجاهل الحياة السحيقة.

حين ذاك، ارعدت السماء وأبرقت. وتجهم وجهها بصورة تبعث على القلق الشديد؛ وهبت بعد ذلك من تلقاء الجبل عاصفة غاضبة ثائرة، كانت نذير بغضب الطبيعة وثورتها الجامحة. وأرخى الليل عند ذاك سدوله. وأخذت الذئاب العاويه تتسلل من خلف صخور الجبل الشامخ الذي كان رابضاً حولنا في شكل مخوف رهيب !!

وامتلأ الفضاء الرحب بعوائها المرعب الداوي! وأخذ الزمهرير يزمجر في غضب وحنق وقوة؛ حتى خلنا أن الأرض بدلت بغير الأرض، وأن الطبيعة أوشكت أن تقود سفينة الكون إلى مقرها الأخير!! وحينذاك صاح في القوم صائح، بأن هيا إلى سفح ذلك الجبل الأسود، فإني آنست نَاراً عسى أن نجد عندها قوماً أو فرجاً من الله قريباً.

فشددنا أرجلنا، وقمنا نتعثر كالأموات في يوم البعث والنشور، حتى لاحت لنا عن كثب نار تختفي تارة وتظهر تارة أخرى. فأخذنا في الطريق منها شيئاً فشيئاً فإذا بقوم من قبيلة (بني عامر) التي تسكن حدود السودان الشرقية. فسلمنا عليهم فردوا السلام بأحسن منه، وأخذت كلابهم تعوي وهي تنفر منا في خوف ورهبة، وتدنو تارة في خضوع وحنو، فبقينا ليلنا عندهم. ودارت علينا جرار اللبن وقداح القِرى؛ فشربنا وأكلنا، فعل الغريب الذي قست عليه الطبيعة في وديان الحياة النائية. فلما طلع الفجر صحونا على صوت قطعان الماشية، تمرح في مرعاها الخصيب، وودعنا أولئك الأكابر النبلاء، بكل قلب قوي وروح تكبر فيهم تلك النخوة العربية المستأصلة في نفوسهم الأبية!!

غادرنا تلك السلالة العربية، وفي نفسي ما فيها من الأجلال و الإكبار لهم. فذكرت أيام العرب السوالف كأنني قد عشت بينهم. وعرفت أن الخنساء صادقة إلى أبعد حدود الصدق، حين وصفت أخاها بانه علم في رأسه نَار . !! فنحن كنا على شفا جرف هار من الموت، حين أعادت لنا الحياة من جديد، رؤيةُ ذلك الجبل الشامخ والنّار تلوح في سفحه القاتم!!

حمدت الله الذي أبقى لنا حتى اليوم بقية من العرب الأشاوس الأمجاد، حتى نفاخر القرون والأيام بأن السودان مازال بخيره، محتفظاً بأجداده وآبائه الذين ملأوا سمع الزمان بأحاديث بطولتهم، وخلدوا على صفحة الدهر أسمى المعاني وأبلغ الآيات، وأكرم السجايا والخصال!!

وعند الصباح غادرنا ذلك المكان الموحش وتابعنا السير، حتى وصلت بعد ذلك إلى أم درمان. حيث قضيت فيها أياماً، هي خير ما يقضيها الفتى البار، مع أهله وعشيرته، وغادرتها بعد ذلك إلى مصر للمرة الخامسة. وقضيت فيها أياماً هي أحلى ما يتذوقه المرء في حياته من متعة الأصحاب والأصدقاء. وأذكر من بينها اجتماعاً أتاحه لنا أحد الأصدقاء مع نخبة من شعراء مصر الحديثة، في داره، وهم الأساتذة "محمود غنيم" "فايد العمروس" و "على الجندي" و"حسن علوان" وهم من الشعراء الذين خطى بهم الشعر خطوات بعيدة. حقاً كان ذلك الاجتماع روحياً سماوياً إلهياً ترفرف عليه ملائكة الطهر والعفاف. سمعنا فيه من الشعر ما أسكر الألباب، وأخذ بالقلوب. وتحدثنا فيه طويلاً أحاديث شتى كانت على خير ما تخلفه أمثال هذه الاجتماعات الأخوية الطاهرة.

ثم افترقنا بعد أن مكّنت تلك الجلسة من روابط المودة والألفة بيننا، وافترقنا على أن نلتقي كلما أمكن ذلك. ولكن الأيام كعهدنا بها أبت علينا ذلك حتى هذه اللحظة؛ ولكنها قد تلين بعد هذه القسوة، وترجع بعد هذا الهجران؛ فتجود الحياة بمثل ذاك الاجتماع الأخوي الحبيب!!.

ثم ماذا ؟! ثم أخذت الحياة تسير سيرها الطبيعي. وأنا صامت في كل يوم صمت القبور، ساكت سكوت الشجر في ليلة صائفة، إلا في فترات متقطعة، كنت أهمس فيها همس الشباب، في أذن الشباب!!



وكنت حينذاك! أحس بأن الأيام توشك أن تمكن أواصر الصداقة والمحبة القوية بيني وبين أخ أُجِلُّه واحترمه، واعتقد تماماً واؤمن بأنه ليس بأقل مني شعوراً بذلك. وأخذت الأيام تمضي على هذا النسق، حتى كسبت في عالم الإخاء صديقاً جديداً هو الأخ الكريم " عبد الهادي مخلوف" أنا شخصياً من الذين يهبون الأصدقاء المخلصين قلوبهم صافية نقية طاهرة!! فكان أن بادلت هذا الصديق قلباً بقلب!!

وأنا كذلك من الذين يؤمنون بأن أرواح الأصدقاء إذا ما قويت أواصرها، استمدت كل روح من الأخرى وحياً قوياً، وحياة قدسية سامية، وهكذا كان شأني وهذا الصديق!! وأنا كذلك من الذين يقسمون بالله بأن الذي يكسب صديقاً مخلصاً في هذه الحياة، فإنما ضمن له حياة جديدة وأنا اعتقد أني سأحيا بأصدقائي الذين عرفتهم وعرفوني والذين أوجدت بيننا السماء وحياً علوياً يربط ما بيننا، وكذلك شأني وهذا الصديق!!

فهل أكون على حق إذا قلت إنني في إخلاصي وحبي لأصدقائي المخلصين بأنني أعبد الله عبادة حقة، وأقدم إلى أصدقائي وإلى نفسي ثواباً من الله، بسبب هذا القلب العيوف المحب الذي أحمله بين جنبي؟.. أرجوا ذلك!!

انت أيها الصديق الجديد عرفتني، فأكبرتك! لأنه لا يُدخِل إلى قلبي شيء من السرور والتقدير، بقدر ما يُدخِله فيه الشخص الذي أتوسم فيه علائم الرجولة والشهامة!!

أنت أيها الصديق، أخ أحبه أخوه. وأنا أعتقد تماماً أن شيئاً كبيراً سيتم بهذه الرابطة الروحية الصادقة...

ولن استطيع بعد هذا أن أنكر أن هذا الإخاء المتمثل في أجمل صورة في هذا الصديق النبيل، كان له أبلغ الأثر في حياتي طوال العام المنصرم... حتى كان يخيل إليّ أن هنالك قوى سحرية خفية، كانت تصل خيوطها الملونة بشتى الألوان، بمصدر القوة

الكامنة في قلبينا؛ فلا أنا أعمل إلا بما يرضي الطرف الآخر، ولا هو كذلك إلا بما يرى فيه الخير لهذا القلب الذي أخلص له الوداد .

ثم انقضى العام الدراسي بخيره؛ فهجرت مصر إلى جنوب الوادي فلم تنقطع أسباب الوداد على بعد الشقة بيننا. بل لم يزدنا ذلك إلا تعمقاً في أغوار هذا الطهر والعفاف الأخوي. فطفقت الرسائل بيننا تحمل أسمى الرسائل من أسمى القلوب. إذ نحونا فيها نحواً جديداً فأردنا أن يكتب كل منا للآخر الصورة الحقيقية التي نرى بها بعضنا فكتبت إليه ما اعتقده فيه غير حائد عن جادة الواقع قيد شعرة.

وكتب إليَّ هو بدوره بما جعلني أُكْبر فيه بعد النظر وصدق التعبير. وكان له الفضل الأكبر الذي لا أزال أدين له به. إذ وجدت فيه الصديق الأول الذي استطاع أن يعرفني بعد خبرة. فكان لنصحه الذي نصحني به، وملاحظته الحقيقة الواقعة التي لحظها في نفسي، أكبر الأثر في تغيير مجرى حياتي من حال إلى حال.

هذه الرسائل التي كانت تصل إليّ من هذا الأخ النبيل، هي المشعل الذي أضاء لي السبيل بعد أن كنت موشكاً على التردي في مهاوٍ سحيقة كنت أجهل الناس بعواقبها. فجاء حديثه وحياً من السماء، وصدى كان يزحم قلباً عامراً بأصدق آيات الوداد والحب والإخلاص .

ويبدو جلياً صدق هذا الحديث في هاتين الملاحظتين اللتين ذكرهما إليّ هذا الصديق في حدى رسائله، فكانتا كما قلت مشعلاً أضاء السبيل... قال وله مني الثناء ( يجب إلا تكون يا أخي صامتاً ذلك الصمت المروع، فإن آمالك وصمتك شيئيان لا يتفقان)

هذه هي الملاحظة الأولى التي أبدأها صاحب هذه النظرة الفاحصة والفكر الثاقب. بعد أن ضل كثير من المعارف عن إدراك كنهها في هذه النفس الحائرة المضطربة! فكان

جزاء ذلك أن كتبت إلى هذا الصديق، معاهداً إياه سراً وجهراً، بأنني سأكون عند حسن ظنه بي، وأني سأفعل كل ما يراه هو صالحاً لي، وإنني سأقلع عن تلك العادة التي ملكت عليّ نفسي، وهي عادة الصمت العميق حتى أوشكت أن أضل من أجله وهاد الوجود .

وما فات صديقي أن يرفع بيده مشعلاً أخر، وأن يرسل من نفسه الصادقة في قولها، نوراً أشع في ظلمة نفسي الكئيبة، فملأها نوراً وإيماناً وحياة طيبة هانئة حيث قال (وشيءٌ آخر؛ ذلك الحزن المتجلي في رسالاتك بل في كلامك أيضاً. أنا أعذرك في ذلك. ولكن كنت أود أن تكون أكثر بشاشة في استقبال الملمات وفي قبول الأمر الواقع حتى تغير ذلك الأمر وتعلو وجهك ابتسامات وضحكات حقيقية حتى لا يشمت في حزنك شامت) .

هذا كلام عميق؛ ولكن عرفته بكل معناه! عرفت فيه الفكرة القوية التي يشتمل عليها، والمعنى الشامل الذي يضمه بين طياته ... !!

سأعمل بكل هذا أيها الصديق؛ فلن أكون صامتاً ذلك الصمت المروع، ولا حزيناً في رسالاتي وفي كلامي لأنني في الواقع كنت محاطاً بشبحين عظيمين ربما كان من شأنهما أن يقضيا على هذه الحياة التي أحياها. ولكن هذه الإشارة هي التي استدعت انتباهي، وهي التي جعلتني أوقن يقيناً كاملاً، وأؤمن إيماناً إلا أحيد عنه، بانك يا صديقي ( مخلوف) أخ طاهر القلب والسريرة، عرفتني بعد أن خبرتني، فأدركت بثاقب فكرك مقدار ما أنطوي عليه، وأحمله في قلبي نحوك، من حب و إخلاص وتقدير. فلك مني الثناء والشكر وعليك مني السلام يا صديقاً عانقت روحي روحه ،وطابقت نفسي نفسه؛ فكان من توفيق الله أن أعبد الله عبادة حقة في محراب هذه الصداقة الروحية المقدسة...

ثم ماذا حدث بعد ذلك، وفي أثناء العطلة الصيفية؟ حدث أني سافرت بعد وصولي أم درمان، إلى غرب السودان حيث استقر بي السير في ربوع الفاشر كان ذلك برفقة شقيقي

" احمد" بغرض زيارة الشقيق الأكبر " صابر" الذي كثيراً ما وقف من الإنجليز موقفي الوطني الغيور الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، ووقفوا منه، موقف المعاند المكابر المترصد لأقل هفوة تبدر منه، ليوقعوا به سوء العقاب. وكان أن ألقوا شراكهم وحبائلهم في كل صوب، حتى إذا ما جن الليل أوقعوه فيها كاذبين غادرين!! ولكن ثق يا أخي بأن عين الله ساهرة لا تنام، وأن هؤلاء الطغاة الظالمين سيلاقون من الله ومنا، كل ويل وكل ثبور، وثِقْ بأن أعمار الظالمين مهما امتدت، فأنها ستقصر فجاءة من غير توانٍ أو انتظار! و أن هذه المملكة الإنجليزية الواسعة ستتغوض أركانها وسيتداعى أساسها وبنيانها في زمان قريب؛ وأن الله لن يظلم عبداً ولا أمة لاتزال تضرع إليه في كل لحظة من حياتها، والله لا يخلف الميعاد..!

عدنا بعد ذلك من الفاشر حيث قضينا في مدينة "الأبيض" أياما جميلة غادرناها من بعد إلى أم درمان ثم إلى مصر حيث أنا اليوم .

بدأ العام الدراسي مرتدياً أثواب متباينة الأشكال والألوان. فكان مفعماً بالاضطرابات العديدة لمناسبات شتى وكان من جرائها أن قفلت المدرسة ما يقرب من الأسبوعيين، وفصل من الدراسة ثلاثة من زملائي هم الإخوان "عبدالوهاب العشماوي" و"محمود كبرة" و"سالم عزام" ، وكنت أنا كما علمت أخيراً رابع هؤلاء البراء لأنني كنت متهماً بالتحريض السري والعمل في الخفاء، والتستر تحت الصمت والسكون والهدوء وعلى أي حال فإنني لم أنج من شظايا قنابل هذه الأطوار العجيبة التي مرت خلال هذا العام .

وقد انتهت تلك الأيام بعد أن كانت ساحة المدرسة في يوم من الأيام ميداناً لرجال الشرطة والبوليس السري، حتى كان يخيل إلى الواحد منا انه في دار للنيابة والشرطة، لا في معهد مقدس للعلم والتعليم.

مضى ذلك العهد فعليه السخط وعليه الفناء وعليه السلام. ولكن ذكراه ما تزال ماثلة أمام العين وأمام هذا العقل الذي لا ينسى ما يعرفه، أو ينكر ما شاهده ورآه... عليك السلام يا ذلك العهد وعليّ السلام..!!

**٢٢ مارس :**

مازلت حتى هذه اللحظة أتقلب بين أشباح الريبة والشكوك وملائكة الإيمان واليقين. ومازالت تعاود القلب أشتات الفكر والآراء الغربية، فلا ألبث أن أعمد إلى كتاب أو أورقة أتلهى بها عن الاندفاع وراء ذلك التيار المخيف. ومازلت كذلك أبتسم إبتسامتي التي أعرفها تماماً، كلما استخفى عبث الحياة والناس، وكلما نظرت إليهم بالمنظار العجيب الذي أحمله معي أينما ذهبت وأين حللت ...!!

كنت بين نيران هذه الهواجس المفزعة والآراء المضطربة حين شعرت، كأن العناية السماوية أرادت أن ترأف بهذا القلب العجيب؛ فأنزلت فيه آية من رضاء الله على صاحب هذه النفس التي تملي هذه الاحاديث!! وذلك أن خاطراً جال بالعقل في ساعة من ساعات تفكيره الرهيبة، فخرجتُ منه بأن أخبرتُ به أحد الزملاء وهو إطعام الفقراء والمعوزين بوجبة يوم من أيام أسبوع الدراسة، بمناسبة ميلاد الرسول!! فصادف هذا الاقتراح هوىً من نفس هذا الزميل. وذهبنا سوياً إلى ربان المدرسة نأخذ رأيه في ذلك، فتقبله بكل ارتياح وبشر، وبدت عليه علائم الاطمئنان لوجاهة هذا الاقتراح! ثم إني خرجت عازماً على تنفيذ هذا الخاطر؛ فمررت على زملائي جميعهم بقاعات الدراسة وأبديت لهم هذا المقترح، فوافقوا بالإجماع عليه. فما حلَّ ظهر يوم الاثنين السادس من هذا الشهر إلا وأخذت سيول من أطفال المدارس الإلزامية، والمعاهد المختلفة، تتدفق على المدرسة بصورة تبعث على والبكاء، والحزن والسرور في وقت واحد، حتى جاوز

عددهم إلى (٥٠٠) خمسمائة طالب. جاءوا يرددون أناشيد متباينة كل ما فيها جميل يُبشِّر بأن هذه الأجسام الصغيرة النحيلة ستُخرِج في غدٍ رجالاً سيكون لهم في تاريخ البلد أثر ملموس!!

كنت أنظر إلى كل ذلك وأنا لا أستطيع أن أحبس دمعة كانت تجول في العين، انحدرت عليّ رغم الابتسامة التي كنت أعصرها من قلبي، ليمتزج في نفسي شعور لا يجمع بينهما إلا القلب !!

غير أن الذي ضاعف هذا السرور، أن نخبة مباركة من زملائي الطلبة والأستاذة، كانوا يشرفون بأنفسهم على هؤلاء الأخوة والأبناء الصغار، وكانوا يقومون بخدمتهم في الموائد بكل عطف وحنان، مما كان له أحسن الأثر وأقواه في نفوس هؤلاء الأطفال الصغار !! فكنت ترى الابتسامة البريئة تطفو على وجوههم الصغيرة فتزيدها طهارة وبراءة؛ وحينذاك أدركت سر القلوب التي تعرف معنى السعادة والبؤس وأثر الحب والبغض!!

أنا لا أدّعي بأن هذا العمل ليس ذا قيمة. ولا أدّعي كذلك أن هذه الفكرة ليست ذات أثر فعّال في النفوس. لا يمكن بحال أن أدّعي هذا ولا أقلَّ من هذا. ولكني أستطيع أن أجيز لنفسي شيئاً واحداً هو أن الله تعالى أراد بي خيراً حين وضع في فكري هذا العمل الصغير في معناه! وأنا واثق تماماً من إنني قدمت لنفسي عملاً سيبقى في السماء ما بقي الجديدان!! وأنا واثق كذلك من أن الله تعالى أراد بي خيراً كبيراً حين ألهمني تلك الفكرة الصغيرة !!

وإنني بذلك قد عبدتُّ الله عبادة حقة، صادرة من قلب لا يحمل بين طياته غير الوفاء والطهر والإخلاص!! وأنا واثق أيضاً من أن حملاً ثقيلاً كان موضوعاً على كاهلي فانزاح عني دفعة واحدة حين صَعَدتْ إلى السماء دعوات أولئك الصغار الأطهار!!

**لك الحمد والشكران يامن وهبتني من لدنك نعمة العقل والمعرفة!! فما أنا بمستطيع وفاء هذا الجميل يا رب، إلا بأن أقدسك وأعبدك في كل يوم من حياتي، وأن أقدسك وأحبك في حب وطني وقومي، وبمقدار ما يحمله هذا القلب من وفاء وحب للخير، ومن غيرة على الإسلام وأبنائه والشرف وعروبته والدين والساهرين عليه !!**

**مضى ذلك اليوم والنفس هانئة قانعة، والقلب منتشٍ زاهر، والفؤاد الذي أثقلته حوادث الأيام بات يمرغ في رياض الأمل والسرور والنشوة !! ثم حل اليوم الذي يليه وكان يوم ميلاد الرسول فماذا جدَّ في لياليه؟ وماذا حدث فيه؟**

**.. كان ذلك قبل حلول تلك اللحظة بأيام. وفيها جال بالفكر خاطر عابر أوحى إليَّ بأن نحتفل بذلك اليوم احتفالاً يتناسب وقداسته في قلوب المسلمين! فعرضت هذه الفكرة على بعض الزملاء، فبدى لهم صوابها وصحتها... فعقدنا العزم على تنفيذها كأحسن ما يكون العمل المقرون بالعزيمة الصادقة والإرادة القوية! فأعددنا لذلك برنامجاً حافلاً، من الخطب والقصائد، وأشركنا إدارة المدرسة فيه، فتكون لجنة من الأساتذة للأشراف على نظام الحفل، ودعوة ولاة الأمور، إلى غير ذلك مما تطلبه أمثال هذه المواقف !! فكان التعاون يبدو جلياً ظاهراً بين الأساتذة والطلبة، مما كان له أطيب الأثر في النفوس!! ثم حلَّ مساء ذلك اليوم، فكان احتفالاً زهت به أرجاء المدرسة، وتاهت به كبراً وفخراً مما دل على أن ذلك اليوم خالد في تاريخ هذا المعهد الذي لم يشهد مثله من قبل!! وقد كانت فيه بعض الهنّات التي قلّ أن ينجو منها عمل شامل كهذا، يضم فئات مختلفة من العقول والجماجم. وانتهى ذلك اليوم والضمير الحيّ في الأعماق، جدٌّ مقتنع وراضٍ عن تنفيذ هذه الفكرة التي جالت بعقل صاحبه، فأبى إلا ان يتخذ لها من دنيا الواقع المحسوس، مسرحاً يمثل فيه**

هذا الدور الذي سيرضي من غير شك، كل نفس تصبو دائماً إلى العلى وتطمح لنيل السؤدد ما وجدت لذلك سبيلاً !!

**٧ أبريل** :

كنت ومازلت مشتت الأفكار والآراء، لا أكاد استقر على أمر من أمور الحياة المتباينة، حتى يحدث من غير توقع ما يضفي عليه ثوباً من أثواب التغيير والتبديل. ولا تكاد الابتسامة الساخرة تأخذ مقرها من نفسي، حتى تنسلخ عنها دمعة الأسى والكآبة الغامضة.

لقد حرت في كل ذلك حيرة قاسية، وأصبحت لا أعرف من الحياة في نفسي إلا إنها شمس تشرق وتغيب، وأنا بين هذا الإشراق وذاك الغيوب، فتىً تائه، لا يدري من أمر نفسه شيئا.

لقد أصبحت أضحك دائماً ولست أدري لماذا! ولم أكن عودت نفسي هذا من قبل. وفي بعض الأحايين اصمت صمتاً مروعاً واكتئب لغير سبب اعرفه، فحينذاك أختفي مرة واحدة في بحر من الشكوك والأوهام!!.

إنها لتجربة قاسية، تلك التي أخذت بها نفسي في مصانعة الناس، والجري وراءهم فيما يتطلعون. إنها قاسية حقاً... ما عودت نفسي عليها قبل هذا.. ولكن رغبتي الجامحة في التعرف إلى كل صغيرة وكبيرة حولي، هي التي أشعلت نيران هذه الرغبة في نفسي، فكان لا بدّ من احتمال العواقب والنتائج!! مهما كانت، إنها محاولة على أي حال، وفترة أردت بها أن أتعرف إلى أيّ السبيلين أقصد، أ إلى السبيل الذي كنت أسلكه من قبل، وأنعم في ظلاله حين أبصر الناس بمنظاري الذي أعرفه، أم السبيل الجديد، وما أراني قطعت فيه شوطاً بعيداً.

أنا على كل حال رهين بالحوادث، ولكنني على الرغم من هذا وذاك، سأسلك السبيل الذي أريده والذي رسمته لنفسي بمداد من الدم والعقل والفكر والقلب، والشعور والوجدان!!

**١٦ أبريل :**

غداً تشرق الشمس عن يوم شم النسيم. فقد لبست الحياة اليوم أبهى حللها وأزينت الأرض وأخرجت بهرجها، كل ذلك استعداداً للغد المأمول. فماذا يكون الغد المأمول يا دهري الخؤون؟؟

ذلك ما تعرف سره الأقدار المحجبة عن أعين الناظرين. وذلك ما تدرك معناه قلوب السماء المتفتحة في كل ساعة من لحظات الحياة ....!!

ماذا يكون الغد؟ لست أدري، ولعل الغد نفسه ليس يدري كنه ذاته. فهو حائر، مثلما أنا حائر في حقيقة نفسي!!

نترك ذلك إلى أن تحين ساعته، فليس هناك شيء أقضَّ مضجعه، كهذه الأفكار الشوارد في الفضاء، والتي تبحث في جوانح الغيب المحجب ثم لا تعود إلا بالحيرة والشك بعد الإيمان واليقين..!!

كنت اليوم في جمع من زملائي؛ فدارت علينا كؤوس الأحداث ومجريات الحوادث، فشربنا كؤوسها حتى الثمالة؛ وخرجنا منها بحقيقة واحدة فيما يعنى بالحالة الداخلية في البلاد، وهي أن الوزارة اليوم تعاني سكرة الموت، وتحاول الهرب من حمرة الردى. فهي بين الأرض والسماء، تلفظ أنفاسها الأخيرة. ويقول البعض بأن السبب المباشر لهذا هو أن عاهل هذه الوزارة، يريد أن يُغيّر في الدستور المادة التي تخوِّل للملك حلَّ البرلمان وإقالة الوزارة. وهذا بلا شك حدث جلل في التاريخ النيابي والإداري في مصر ... مما

جعل المليك كما تقول الاشاعات المتضاربة يصدر أوامره بصفته القائد الأعلى للجيش، بأن تكون وحدات الجيش على استعداد!! وهنا يقف بنا التفكير ويقصر الإدراك عن التعرف بأكثر من هذا. ولكننا سننتظر لنرى ما سيأتي به الغد القريب وليس الصبح ببعيد...!!

**٢٣-٢٦ أبريل** :

لست أدري لماذا أراني دائماً كأنني مكلف بحمل نتائج أعمال البشر على إختلافهم؟ ومالي كأنما ضُرِب عليّ إرضاء هذه الجموع البشرية المائجة، حتى إنني أصبحت عرضاً لسهام هذا الضمير القاسي!

لقد والله حرت في أمري. فما سرت في شارع، أو جلست في حيث ما أريد، أو ضمّنتي الظروف في أيِّ نوع من الجماعات، إلا وأحسست إحساساً عميقاً بأن لا بدّ لي من بذل كل القوى الكامنة في القيام وحدي ووحدي فقط، بكل ما استطيع وما لا أستطيع في إرضائهم وأراحتهم جميعاً.

ما شأني وشأن الحياة والناس ؟ وما هذه الأفكار المتضاربة الصاخبة التي تداعب النفس، وتوشك أن تؤدي بالفؤاد؟!

أنا الذي كنت أسخر من حيرة الفلاسفة في تعليل الكون والتعرف إلى كنه الحياة وسبر أغوار الحقيقة فيها أعود وأفكر فيما كنت اسخر منه ؟

إن هذا والله لأمر عجيب! وأعجب منه، إنني أظل في هذا الوحدة من أغوار التفكير وبحاره، ثم لا ألبث أن أعود بالحقيقة المرة، وهي إنني عدت وأنا أجهل مما ذهبت !! إن الحقيقة التي أعرفها إنني بشر كالناس في ظاهري ولكنني أعتقد أن الأعماق تختلف في هذه النفس الساخرة عن بقية البشر. لأن هذا الفارق الجسيم الذي ألحظه بيني وبينهم في

كثير من الأوقات، يجعلني أعتقد بأن الإنسان الكامن في نفسي، هو إنسان وهو ليس بإنسان...!! فما هذا التناقض وما هذه الشكوك والريب ...!!

هذا هو الواقع الذي لا مراء فيه. وهذا هو الواقع الذي يؤلمني ويسرني في وقت واحد. وسأظل هكذا مؤمناً به حتى أستطيع أن أقف على حقيقته تماماً، وحين ذاك أستطيع أن ألعب الدور الذي أريده، والذي أعتقد إنني ما خلقت إلا لأمثله على مسرح الحياة وحدي... وسأعرف كيف أقوم به تمام القيام، وسأعرف أن الأقدار التي ألقت على عاتقي مهمة القيام به، كانت حسنة الظن بي حتى النهاية .

سأعرف كيف العب هذا الدور ....

هذه الاندفاعات كثيراً ما تخفف عن نفسي هذه الدموع التي أراها في كثير من المرات تنحدر طوعاً أو كرهاً، ودون أن أعرف لها سبيلاً أو سبباً، غير تلك الأفكار الجياشة في نفسي، والتي لا أستطيع أن أصدَّ تيارها العنيف، الذي أخشى أن يؤدي بحصون هذه النفس المنيعة، فينحدر بها وهي في الريعان، نحو تلك الهاوية السحيقة التي ما أزال حائراً في عواقبها، والتي سيشرب من كأسها كل من سار على الأرض أو غاص في البحر أو طار في الفضاء !!

فوداعاً يا نفسي الشهيدة... ووداعاً يامن تسيرين بصاحبك إلى حيث يدري ولا يدري... وداعاً يا من خشيت عليك الردى قبل أن تحققي هذه الآمال الجسام،

وسلام عليك أيها القلب، وأنت أسير هذه الأفكار الدفاقة، رهين بهذه القيود الثقيلة التي تفرضها عليك يد الزمان ...

وداعاً يا قلبي الحزين الجريح، ووداعاً يأيتها النفس المجروحة، فلسوف لا يكونن في الحياة إلا ما أريد ...!!

## بعد ثمانية أشهر وأيام

### ٧ يناير ١٩٤٥م

سلام عليك يا عامي الوليد! وتحية من قلب كان غرضاً لسهام الحياة الأليمة من غير أن يعرف ماذا جنى في حياته السوداء ...

فتحت أول صفحة من كتاب اخيك المنصرم، وطفقت أنظر ما تخطه فيها يد الأيام، فماذا قرأتُ في نهاية تلك الصفحة العجيبة السحرية، وبماذا جرت يراعة أخيك يا عامي الجديد؟!

لست في حاجة لأن أذكر لك مآسيه وآلامه، ولا أن أعدد كم أبكى وأفجع، وكم آلم وروَّع. فأنت اليوم مازلت طفلاً وليداً، ولا أريد أن أجني عليك بذكر هذه الآلام، حتى لا تشب على ما كان عليه أخوك في سالف الأيام!!

مضى وقت من الزمان يربو على المائتين وخمسين يوماً لم تجر فيها شياه القلم على صفحة الطرس، فكانت تعاودني في الكرى أشباحاً وفي الصحو هواجساً وأتراحاً، لأني لم أقم نحوها بواجب التحرير والكتابة، وإفراغ ما في القلب من خواطر عابرات سانحات !!

مضت هذه الحقبة من الزمان تخطر حيرى بين بقايا العام المنصرم، وتباشير العام الجديد، فكان فيها المؤلم، وكان فيها ما يُنذر بالسرور، لأن هذه النفس العجيبة أصبحت من فرط ما ألفت الأسى والحزن، ترى السرور نذيراً بنهاية الألم الذي أصبحت تعيش فيه كأحسن ما تعيش النفوس في نعيم الحياة وروائها، فلله أيتها النفس ولله ما تبذلين في الحياة من آمال!! مضى هذا الزمان الطويل والقلب لأحداث هذه الأيام حافظ أمين، كأنما خلق ليحمل كل يوم رسالة قدسية من رسائل الدهر.

اجل! بدأت هذه الأيام بانتهاء آخر يوم بكت فيه مقلة اليراع على هذا الأديم الناصع! فجرت كما ذكرت أحداث وأحداث فيها ما هو حقيق بالذكر، وفيها ما هو دون ذلك، وإني إلى جانب الأهم لأميل. فلنأخذ باللباب فيها ونغض الطرف عن القشور !!

هجرت حلوان وفي النفس لها سحر وفي القلب منها سعير. هجرتها إلى السودان وأودعت قلبي عند أهليها وفي ربوعها الساحرة الفاتنة، وسرت أخطر في سيري كالتائه في قفار الحياة اللانهائية، السابح في بحور الشكوك والحيرة، من غير أن يرى ساحلاً يبعث في نفسه الأمل في الحياة... ولم يطل بي المقام حتى ألقيت عن كاهلي أعباء السير في مدينة أحلامي ومحط آمالي العراض.. في مدينة أم درمان، حيث أمي وأبي وإخوتي أجمعين، وهم عدة القلب في هذه الحياة البائسة، وفرحة النفس في هذه الأيام العابسة!

لم يطل بي المكث أيضاً في تلك المدينة، حتى بدأت في تنفيذ الفكرة التي كانت تجول في خاطري وتملك عليَّ المشاعر، والتي كانت ترمي إلى خلق حركة ثقافية يقوم بها الطلبة القاهريون في العاصمة المثلثة. وقد قطعنا في تنفيذها شوطاً بعيداً وما كنت لأقف عند حد في تنفيذ آخر فكرة كانت تدور في خاطري، لولا أنْ تدخلت يد السلطة الحاكمة الغاصبة الغاشمة، ووقفت حائلاً بين هؤلاء الشبان البواسل، وبين المضي في هذا العمل الشريف الطاهر النبيل، غير أني لم أقف عند حد في تنفيذ مجهودي الفردي الذي كان يتعلق ببعض النشاط الصحافي، فقلت بعض ما أمكن أن أقوله، وأكتفيت بذلك. ريثما تتاح الفرصة الكبرى للجهر بما أريد أن أجهر به، وأن أرأب به صدع أولئك الغاشمين .

ثم حدث في خلال ذلك ان أثيرت مسألة السودان؛ وقد كان لها صدىً قوياً في ربوع مصر وأرجاء السودان مما نبَّه العقول والمشاعر إلى هذه المسألة الحيوية الدقيقة .

ثم إني شعرت بالحاجة القوية لإنشاء مجلس أدبي يضم نخبة من الزملاء والأصدقاء المثقفين. فكان أن كوّنت صالوناً أدبياً يجتمع فيه الإخوان يومين من كل أسبوع. وفي اعتقادي أنه كان غاية في النجاح ولو طالت بي الأيام هناك لأنبعثت وهذا ما سيكون في مستقبل الأيام، أول شرارة من جحيم الثورة بكل أوضاعها ومعانيها... الثورة على كل ما لا تقبله النفس ولا يرضاه العقل والفكر والقلب...!!

ثم إني لم أستطع أن أكبح في قلبي رغبته الجامحة في التعرف لبعض مناحي السودان، فغادرت مدينتي إلى ارض الجزيرة، حيث طفت ببعض بلدانها مرتين، حتى استقر بي النوى في مدينة النور، أو عاصمة السودان الثقافية "مدينة مدني" وقتها قضيت أعذب أيام ذقتها منذ فجر بعيد!! وإن من الأنصاف أن أقول أن مظاهر الحفاوة التي أولانيها أخواني وزملائي هناك، كانت من أكبر المسائل التي ملكت على ناصية القلب والوجدان...

فماذا جدَّ بعد هذا أيتها النفس المعذبة؟ لم يكن إلا إنني قضيت باقي أيام من العطلة بين أهلي وعشيرتي. فسكبت من ذوب قلبي رحيق المحبة، وسقيتهم إياه ماء زلالاً . وشربت من دنان قلوبهم الطاهرة، ما بعثت في نفسي الحياة الحلوة المشرقة. فطفقت أحيا بها هذه الأيام التي أعيشها حتى الآن.

ثم إني ما لبثت كعادتي أن هجرت السودان إلى مصر، وأنا أحمل بين طيات قلبي أجمل الذكريات لذاك البلد الأمين .

أجل عدت إلى مصر، فاذا بالحياة كما عهدتها! ثم إني سارعت أبحث عن قلبي في ربا حلوان! قلبي الذي نَصَبَتْ له الفضائل الطاهرة من أبناء حلوان، فخاخاً قوية حتى وقع تحت أسرها النبيل!! فتركته أمانة هناك، وعدت فوجدته أكثر إشراقاً للحياة من قبل .

تركته وهو كالبرعم الزهري لايزال مُكِبّاً على نفسه لا يعرف مما حوله إلا نفسه، وعدت فإذا هو كالزهر المخضلة اليانعة الباسمة، تشيع الطهر والحب في كل ما حولها؛ فإذا به كونٌ عجيب تقرأ فيه سفر الحياة ولوح الخلود!! فلك أنت أيها الصديق الذي حبوتني بهذا الإخاء النبيل وما حبوتني إلا بمثله!! وبحثت لتحملني آخر ما تملكه في حياتك فأهديتني قلبك، وأحللتُ أنا قلبي مكانه من نفسك، لأنه أعز ما أملك في هذه الحياة. فهل بعد هذا (يا كمال) وفاء وإخلاص وحب ؟ وهل بعد هذا مودة وصفاء ؟! أنا لن أذكرك إلا بالخير والحب (يا كمال)، لا لأني واثق من أنك تبادلني هذا الشعور فحسب، ولكن لأنني لا أملك لا أن أقدم لك جزاءً لما أشعر به من إحساسك نحوي، إلا هذا القلب وإلا هذه النفس التي لا أكذبك الخبر، إن قلت لك إنها استمدت منك إشعاعاتها القدسية التي تحيا بها اليوم !!

ولن أنسى ما حييت (يا كمال) أنك أول من استطاع ان يتغلغل في أعماق نفسي ويعرف منها دقائقها وأسرارها، حتى طلعت عليَّ قبل أيام ونحن في جلستنا السماوية، بتلك الإشارة العابرة عنْ مدى ما يخامر نفسي من ألم!! فأكبرت فيك هذه الروح وسأظل كذلك أكبرها ما حييت وأنت وحدك تعرف إلى أي حد أنا أوليك هذا الإكبار والإخلاص والمحبة يا كمال شبرا!!

**١٤ يناير :**

أنا الآن في شُبرا أكتب هذه السطور العجاف بعد أن استقرت بي النوى في رياضها منذ أسابيع ثلاثة، مرت كأطياف الكرى في أحلام العاشقين !!

أجل أنا في شُبرا بعد أن ودعت أيامي الخوالي بحلوان... ودعت أنضرسنيّ حياتي في ربوعها القدسية السامية، فلله أيامي بحلوان الحبيبة يا قلبي... ولله سنون أربع مرت من العمر كما يتلاشى سحر الوردة الناضرة في يوم قائظ!!

فبماذا أرثيك يا ذهابات الصبا من عمري الفاني! وكيف أودعك يا آمالي التي خلفتك في هذا البلد الذي ما عرفت معناه حتى اليوم بين أطياف هذه النفس الحائرة المضطربة؟!

أنتِ ياحلوان ... وأنتِ يا آمالي بحلوان، وأنت يا قلبي ويا زائداً عن حياض هذه الآمال... لا أملك إلا أن أرسل من أعماق نفسي إشراقة من دنيا الأمل والحزن هي كل ما أملك تقديمه في سبيل هذه السنين التي مضت. ولا أدري كيف مضت!!

آه يا أيامي بحلوان!! ثم آه يا قلبي ويانفسي ويا آمالي بها أنا. لن أنسى ما حييت، كيف حييت في ربوعك، وكيف بنيت في سمائك الصافية، بواسق من آمال الشباب الغض، وقلوباً عمرت برحيق المودة والإخاء الطاهر والحب النبيل...

فوداعاً ... وداعاً يا ربيع حياتي، ويا زهرة آمالي، وعنوان شبابي الغابر الثائر... وداعاً يا منبع الحب والصفاء، ويا معقد الأمل والرجاء... وسلام عليك يا شُبرا يا مدينة الأمل الجديد ويا أخت حلوان، ويا سِفْراً لست أدري ما ستخطه الأقدار في صفحاته ...!!

## ٢٨ يناير :

ثلاث سنوات تصرمت، من حياتي المجهولة منذ أمسكت بالقلم للمرة الأولى لأكتب على هذه الصفحات سطوراً هي عصارة حياتي في أيامها العابسات!.

أجل! ثلاثة أعوام مضت، وأنا واثق من إنني استطعت أن أقول فيها لنفسي حديث القلب إلى القلب، وأنا واثق كذلك من إنني استطعت أن أكتب هذه الحوادث العابرة، على صورة تقرب أو حتى تكاد تكون هي الواقع بعينه. وبهذا استطيع أن أعتبر نفسي قد ربحت كثيراً، ولم أخسر شيئاً!! وهذا هو كل نصيبي من سعادة الأيام!!

هذه الصفحات السوداء بمداد القلب الجريح، هي حياة هذا الفتى الذي ما استطاع حتى اليوم، أن يعرف مكانه الحقيقي في الوجود. هذا الفتى الحائر الذي تتفتح الحياة أمام عينيه كل يوم عن جديد، حتى تشعبت أمامه السبل في معرفة الغاية التي من أجلها حل ضيفاً بهذا الوجود...

ربِّي رحماك .... إن فتاك الذي قذفت به أمواج الحياة إلى شط الثرى، ما يزال فاقداً وعيه في كثير من أيامه، من فرط هذا الماء الأجاج الذي لقيه من دأماء الحياة... فإن لم تتداركه من علياء سمائك روح من عندك، ويقين من قدس عرشك الأزلي الخالد، فقد تطوح به عاديات الشكوك في مفاوز الحياة القفرة وبذلك يخسر كل شيء في قلبه الغريب .

فسلام عليك يا أيامي الذاهبات... ووداعا أنت يا ماضيَّ الأمين... وسلام عليك يا أيام حياتي الآتيات لو كان لي بعد هذا وجود في الوجود ..

### ٣ فبراير

### بعد تسعة اشهر ... وأيام

مضى عامي الميمون من حيث كنت، كأنضر ما تكون الأعوام الجميلة السعيدة، وخلَّف من ورائه في النفس حنيناً وذكرى... مضى عامي الدراسي في شُبرا كما أردت وأحببت. وكأن عناية الله أرادت أن أختم دراستي الثانوية بأبرع لفته من لفتات القدر، فما فعلت أكثر من إنني عبدت الله في كل شيء.. وهذا غاية الإيمان في عقيدتي ويقيني .!!

لم أكن أقنع بالسكون والقرار كعادتي، ولكني اتخذت الثورة على الجمود بنداً من حياتي فليس بعجيب أن أفكر قليلاً في بعث نوع من الحياة يغاير ما وجدته في ذلك المعهد الميمون، فاستطعت كما فعلت ذلك بحلوان أن أنشئ جمعية ثقافية أدبية به، استطاعت في

سهولة ويسر أن تُخرِّج فئة من الشباب الذي عليه أن يكمل ما بدأه وأن يواصل ما تعلمه من الحقوق الملقاة عليه. ولست غير الواقع أقرر إذا قلت أن تلك الجمعية كانت كسباً لشباب ذلك المعهد المقدس، بما بذرته فيهم من روح الشعر والمحاضرة والمناظرة... ولكن ذلك العمل مهما كان فيه من مجهود وفائدة، فهو واجب كان لابد من أدائه فأديته!!

لم يكن نصيبي من الشعر في كثير من المناسبات في ذلك المعهد الخالد، بأقل من نصيبي من إيماني بواجب الوطن الحر في بلد كمصر، وأنه لَدَين، وأنها لأمانة أقرر فيها حقيقة ما أقول، إذ أنا أرسلتها في صراحة وإيمان كلمة تقدير وإكبار للأساتذة الذين على يديهم نلت ما نلت من ثقافة، وحسبي ما لقيته من تقدير ملك مني المشاعر من مربي شباب ذلك المعهد الباقي، حتى جعلني أنظر إليه بعين لا ترى فيه إلا كل مَثَلٍ للشباب يحتذى.

أجل! بهذه الصورة المتعددة الألوان الجميلة، وبهذه المسرحية الرائعة، ختمت آخر أيامي بشُبرا، فنلت منها شهادة البكلوريا وودعتها، وفي النفس لها ذكرى وفي الفؤاد شوق وحنين .

ثم إني هجرت هذا البلد الجميل إلى ربوع السودان أقضي به أيام عطلتي بين أهل طال أمد الشوق إليهم والحنين فقر قراري عند وصولي إلى السودان في مدينة " شندي" حيث تقيم شقيقتي هناك. فكانت أياماً على الدهر لن أنساها ذقت فيها الإخاء وحنو الشقيقة .

وحاولت أن ابدأ في تلك البلدة التي أعزها، نشاطاً أدبياً فما أفلحت حيث وقفت إرادة السلطة القائمة في أول سبيل أردت أن أسلكه فحالت بيني وبين القاء محاضرة "بنادي شندي" فما وسعني إلا أن ابتسم لذلك، لعلمي بما تضمره الحكومة من نيات لهؤلاء الذين يتلقون علومهم في أرض الكنانة...

ومن ثم وبعد أسبوع حافل بنبل الإخاء وحسن البشاشة. غادرت تلك المدينة الساحرة إلى حيث يقيم أهلي وأخواتي ... إلى أم درمان مبعث الحياة والشعر والجمال

ولم يطل مكثي بها حتى عاودت الكرّة في بدء النشاط الأدبي من جديد... ولكن الروح التي كانت تسود نادي الخريجين آنذاك، والجو الذي أحاط بالمحاضرة التي أزمعت إلقاءها فيه، كل ذلك كان سبباً قوياً في إضعاف الروح التي كنت مقدماً بها. وهذا ما كان ليوهي من عزيمتي أنا، فإنها لعزيمة وإرادة دون نيلها قلل الجبال وبينهن حتوف، ولكن ذلك غيَّر من فكرتي إزاء القائمين لشئون النادي الثقافي آنذاك، وطفقت أنتظر ما تأتي به الأيام في ذلك البلد العجيب. وجاء يوم حدد فيه إلقاء تلك المحاضرة. التي لم أكن مرتاحاً لإلقائها بعد ما تبينته من تلك الظروف التي عرفتها، ولكن السماء بعواصفها وسحبها ومطرها الهتان السكوب حالت دون ذلك فلم ألقها... وتركتها إلى حين!!

وكنت خلال ذلك أزاول في قوة نشاطي الصحافي بالجرائد المحلية حتى حلّ رمضان، ولاحت أواخره هجرت أم درمان متجها شطر الغرب إلى "مدينة الأبيض" حيث يقام المهرجان الأدبي وفيه يعرض النتاج الفكري واليدوي خلال عام من أعوام السنة في ذلك البلد الأمين. وكان أن ألقيت فيه كلمة عن شاعر السودان التجاني نيابة عن الأخ حسن الطاهر زروق الذي حالت ظروف دون حضوره ذلك المهرجان.

ثم قفلت من تلك المدينة راجعاً، واستقر بي السير في عاصمة الجزيرة ومدينة النور (مدني) وطال بي أمد المكث فيها إلى ما يقرب من أسبوعين أو يزيد، وفيها متعت النفس بلقاء نبيل من أصدقاء نبلاء لا أحمل لهم إلا كل محبة وإخلاص. ثم غادرتها إلى أم درمان وفي النفس لها ذكرى، وإلى البقعة حنين وشوق...!

وقبل ذلك، لعبت السياسة الماكرة في وادي النيل دوراً خطيراً كان نتائجه قيام أحزاب سودانية متعددة، انتهت بقيام حزب الأمة "الأخير" الذي لاقى من خصومه أعنف أنواع الطعن والتجريح لغرضه ولكثرة مواطن الطعن فيه، وكان عقد القضية الوطنية على وشك الانفراط، وكاد زمام الأمور يفلت من قادة الشعب المخلصين وينتهي الأمر إلى يد الحكومة السكسونية الغاشمة، لولا تدبر هذه الأحزاب للعواقب السيئة الوخيمة ونظرتها إلى المستقبل بعين الحذر والعقل. فكان أن اجتمعت كلمتها أخيراً وتألفت فيها بالإجماع جبهة ائتلافية وضعت مذكرة خطيرة بشأن السودان وبعثت بها إلى المؤتمر ليرفقها برده على الحكومة على ما بدر منها من وقاحة ولؤم في ردها على مذكرة المؤتمر القوية الخاصة بمستقبل السودان .

ولا ندري ما سيتمخض عنه الغد المأمول من أحداث، وهو الأن كالمرجل الفوار، وفي نكسة مقرونة بالذهول من جراء ما أصابه من ضربة الحرب الجبارة القوية.

فلله ذلك المجتمع الذي هبَّ من رقدته في فتوة عاتية وأخذ يناضل بكل القوى في سبيل الحياة الحرة وقبل أن أهجر السودان إلى مصر ألقيت محاضرتين بالمكتبة الوطنية بأم درمان عنوانهما " الدبلوماسية العربية في صدر الإسلام " وأحاديث الخميس" وثالثة بنادي العمال عنوانها " حديث إلى العامل " وكان ذلك في فترات متقاربة، أما أثرها فلا حاجة بي لإيضاحه... ثم غادرت السودان سلام عليه. الدقي .

**اليوم نفسه** ...

أنا الآن في بيت السودان اكتب هذه السطور الأولى من سفر حياتي الجديدة حياة الجامعة أو مرحلة التعليم العليا. اجل أنا في بيت السودان مقر الطلبة الجامعيين من أبناء السودان. بدأت به حياتي الجديدة من أول مطلع يوم في هذا الشهر الذي نحن فيه، ولم ينبعث أول شعاع من نفسي إلا في اليوم الخامس من هذا الشهر، وهو اليوم الذي طويت فيه المرحلة الثانوية وفتحت فيه أول سِفْر من حياتي الجامعية الجديدة ... فماذا ستخط فيك اليراعة، يا سِفْر حياتي الباقي .؟ وماذا ستكتب فوق هذي الطروس حين تملي عليك الأقدار ما تمليه، لست أدري من ذلك شيئاً غير أني سأكون أميناً في تسجيل ما يدور في هذا المعترك الصخاب، وسأكون مخلصاً كعادتي فيما كتبت وما سأكتب .

أما انت ما معبري الجديد، ويا موطن فكري المرتكن إليك، سأحمل في قلبي ونفسي لك خير الذكريات المقرونة بالعاطفة المشبوبة والإجلال الذي لا يحد!!

وسلام عليك أنت يا داري الجديد، ويا معقل هذا الجسد الذي أضنته الأحداث والآلام الوطنية، والأحاسيس المعتلجة فيه، والتي نالت منه حتى أوشكت عاصفة الزمان الجائحة أن تقوّض عوده، وتذوي من نضره وهو مازال في ريع الصبا وعنفوان الشباب .

سلام عليك يا معهدي الجديد... وسلام عليك يا داراً لست أدري مخبوءات القدر في حواشيها ..

**١٧ نوفمبر** :.

تعتريني في هذه اللحظة الرهيبة نوبة من السخط والغضب، اللذين لا أدري لهما مصدراً، ولا أعرف لهما كُنْهاً. أجل! تساورني هذه الثورات النفسية العاتية والعيد لم يزل

شبحه الأسود ماثلاً أمام هذه النفس الحائرة ... وغداً سيزول من صفحة الحياة هذا الطيف العابر بعد أن يقيم بيننا أربعة أياماً حسوماً لم أذق فيها طعم المرح الذي كنت أرجوه ولكنها أيام انقضت، والوسط السوداني في مصر، لم يزل كعهدي به ضارباً في أغوار الانحلال والضغائن، حتى لكأني به ينحدر في سرعة الأمل الزاوي، إلى قرار من الهاوية سحيق. فها هي حفلة العيدية تقام بالأمس الأول وإذا بها تنتهي بمأساة خالدة يتقن أدوارها السودانيون اتقاناً كاملاً، وإذا بها تضرب مسماراً آخر في نعش السودانيين في مصر!!

فالطالب السوداني في هذه السنوات والأيام الأخيرة، أفلت من يده زمام نفسه، وباتت خيالات تنسج حول مرقده الآمن الوثير، صوراً من المثل العليا التي تخرج به من محيط العلم إلى دأماء السياسة العميق؛ وإذا به في النهاية يصبح كالغراب الذي أبصر مشية الطاؤوس فحاول تقليدها وعجز ثم حاول الرجوع إلى مشيته فأخفق...

فهاهم اليوم ينادون بضم صفوف الطلبة، وكم ذا حاولوا ذلك من قبل فباؤوا بالفشل، وما علموا أن هذه الصفوف يمكن ضمها في سهولة ويسر، إذا ما انمحت من القلوب ضغائنها وأحقادها، أما أنا فسأضع لنفسي خطة جديدة لن أحيد عنها وأنا حين أفعل ذلك إنما أفعله عن خبرة وتجربة، وبعد فحص وتدقيق، فهي نتيجة لازمة للسنوات التي قضيتها في مصر وبين هؤلاء الشباب الذين أوشك أن يذبل فيهم آخر خيط من الأمل والرجاء!!

إن حياتي الجديدة هذه ستضع أمامي خطوطاً واضحة المعالم لما يجب أن أنتهجه وأسير على هديه ...

سأنصرف لنفسي بعد هذا ، وسأحتفظ بالبقية الباقية من شمعتي التي تحترق، وسأبني حياتي من جديد لأكوّن شخصيتي على الصورة التي أبغيها لنفسي. ولن أكون ذلك " الصادق " الذي أضاعه الخجل ومحقته المجاملة في كل شيء حتى اوشك أن يفلت من

يده زمام الشخصية التي يريدها. ولن يفعل كل هذا شيئاً في العلاقة بيني وبين زملائي وأصدقائي، وإنما سيضفي عليها ثوباً جديداً هو ثوب التحقق والتثبت من رخيص الناس وثمينهم، حتى تبقى الحياة من بعد، حياة رجل يود أن يكون هو كما يجب وما يريد أن يكون ...

أنا أمرؤ فقير ما في ذلك ريب ولكني غني بنفسي وروحي وشخصيتي وهذا هو نصيبي من الحياة. وأنا به قانع راض .. !! أجل أنا فقير معدم وهذه حقيقة لا أنكرها على نفسي ولا تعنيني في شيء أن ذكرتها للناس، ولن يؤثر ذلك في نفسي شيئاً على الرغم من أن الوسط الذي أنا فيه يحتم على المرء الظهور بكل غالي نفيس ..

أنا لا أكترث لهذا ولن ... وسأحيا حسبما يتفق لي، فما الفقر بعيب، وما الادقاع جريمة يحاسب عليها المرء. فالوضع الذي نحن فيه يفرض علينا أن نكون كذلك .

وإذا كان الغنى والثروة ووفرة المال من كماليات الحياة الضرورية، وكان لا بد من وجودها في اليد، وكانت فوق ذلك من مستلزمات استكمال الفرد ، فإني لا محالة سأنال الغنى عن طريقه المشروع !!!

لا أعرف إن كانت أيامي في الحياة طويلة أو قصيرة، ولكني سأعمل ما يوحي به القلب المؤمن العامر بالثقة غير مكترث في ذلك للجماعة في شيء ... سأعمل وأنا (صادق) وسأتحمل وحدي نتيجة ما أعمل وأنا صادق أيضاً .

لن يقعد بي عن رسالتي مقعد، وسأخلص في عملي ما استطعت وأؤدي واجبي حتى يقنع ضميري، فإن أصبت بعد ذلك نجاحاً، فواجب لا أرجو وراءه من جزاء وإلا فواجب أديته وأنا قانع مرتاح الضمير .

سأفصح عما في نفسي جهراً وسأغضب وأثور على كل وضع شاذ ولكنني سأكون أيضاً (صادقاً) لا يعتورني التهويل في شيء إلا في نظر من يجهلونني وهم بحمد الله كثير وكثير .

أنا مازلت غامضاً في نظر الناس. ولن يعرفني إلا من عرف نفسه أولاً وعرف قدرها. وآنذاك فقط سأرفع له الستار عن مسرح هذه النفس الكبيرة العاتية، ولكن هل يعرف الناس أقدارهم أولاً ؟ عسى ولعل وليت..!!

أما أنا ... فسأمضي في سبيلي حاملاً مشعلي في يميني ... ولن أبالي بعد ذلك بالدنيا تقوم من حولي أو تقعد !!!

**أول العام الجديد ١٩٤٦م :**

مات يوم أمس ، فانطفأ بذلك آخر ومض كان يلوح من ثنايا العام الفقير، وهأنا اليوم أفتح صفحة بيضاء من سِفْر الحياة في مستهل هذا العام المجهول .. ولكني لن أفعل ذلك قبل أن أكتب الفصل الأخير من كتاب الأيام من عامي المنصرم .

أجل! هناك فصول مثلتها يد الحوادث في مسرح الحياة، ولم استطع تسجيلها منذ آخر لحظة خططت فيها اخر كلمة من قبل هذه السطور، فماذا كان هناك وماذا جدّ في الحياة وأنا في حيث أنا! ؟ هذا ما سأكشف عنه غداً قبل أن أبدأ في هذا العام المجهول.

## صور من الحياة اليومية

١٩٤٣/١/١٨م

ـ:مقدمة:ـ

إنها صور من الحياة إلى الحياة.. ومن الناس إلى الناس.. ومن هذين إلى نفسي الباسمة الساخرة!

صور لا تزال تتمثل أمامي في كل يوم. كأنما ليس لها ماضٍ فيندثر، أو حاضر فيستتر، أو مستقبلٍ فيتوارى خلف الحجب. ولكنها جمعت بين هذه الحالات، ووفّقت بين تلك التي لا يربط بينها رابط، ويجمع بينها جامع؛ فكانت بعد كل هذا شبحاً مخيفاً!!

إنها صور تموت في أعين الناظرين؛ ولكنها تحيا في هذا القلب الذي كُتِبَ له الشقاء والعذاب.

إنها صور تلوح في مسرح الحياة كالخاطر العابر، فترتسم في سرعة البرق على صفحة هذه النفس المشرقة بجمال الكون حتى يغضي عن حسنه الناظرون!

إنها صور ضاحكة باكية، عابسة باسمة، راضية ساخطة، ظالمة دامية!

إنها الحياة وما فيها من نعيم وجحيم. والسماء ما فيها من فلك ونجوم؛ والأرض وما تحمل ما خلقت يد الله العظيم؟؟

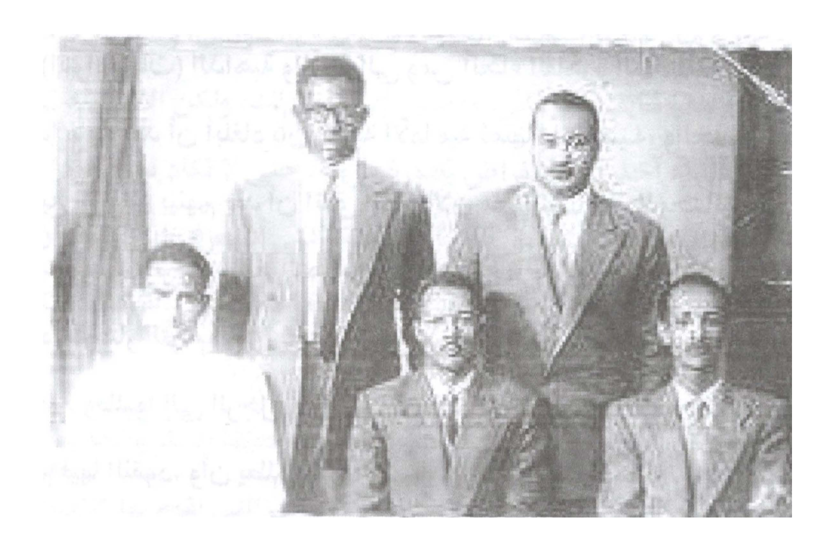
إنها تمثل حوادث اليوم، وما فيها من عِبَر!! وتصور الحياة اليومية في أوضح معانيها، وتسجل في أمانة وصدق، خلاصة معنى الحياة!!

أعتقد الآن أني أوفيت الغرض المراد من هذه الصورة العجيبة. لأني رأيت من العقوق أن تمر بنا الحوادث ونحن عنها غافلون؛ وتطرق آذاننا أصواتها الشجية، ونحن لا نطرب لها، ولا تحركنا نغماتها الساحرة. وكذلك الحال إذا ما دوّت طبول تلك الحوادث، ونعقت غربانها.

والسنون التي تمضي هي السنون. ولحظات الحياة التي تمر بالعالم في كل مكان، واحدة لا يكدرها اختلاف. أليس عمرها من مطلع الشمس إلى حين غروبها وشروقها غداً ؟!!

حسبنا أن يكون هذا دليلاً. وهنا تتجلى مزية الحياة وقيمتها في اختلاف الأمزجة والأفهام في تقدير الأمور. ولولا ذلك لكانت الحياة ناراً تتقد، وجمرة يذكو أوارها.

وأخيراً.. فإن دروس الحياة غالية قاسية، فنأخذ العِبرة من حاليها...!!



## ٢٠ يناير ١٩٤٣م

كنت بالأمس أفكر في الصورة التي أبدأ في عرضها، فما أسعفتني الذاكرة بالمبتغى، ولم أظفر من الأمس بالمراد. فتركت القلم ساخطاً لاعناً، ومضيت... وأصبح الصباح.. وما كنت أدري أن فيه الأمل المنشود.. رأيت الوجوه عليها مسحة من الشجون الصادر من حدوث أمر شاذ... وجعلت أسمع لغطاً شديداً هنا وهناك... وبسمات تخرج من الأعماق في غير إرادة.. وتبيّنتُ الأمر، فما وسعني إلا الضحك، وإلا الابتسام.

ويتلخص مغزى حادث اليوم في أن رجلاً من أبناء الصعيد، هبط أرض القاهرة ومعه مبلغ من المال لا يتجاوز الثمانين جنيهاً؛ وكان يسمع من قبل أن الأموال في القاهرة تتدفق إلى جيوب الناس، بقليل من الحِيَل.. وكان من سوء طالعه، أن تعرَّف إلى رجلين من المحتالين، ووصف لهما حاله، وأبلغهما أنه يريد أن يكوِّن من مبلغه هذا ثروة طائلة، وأنه يطلب منهما أن يصفا له الطريق لذلك.

فأشارا عليه بأن يشتري (تراماً كهربائياً). وخرجا به إلى ميدان الملكة فريدة، حيث تلتقي كل (الترامو ايات) الذاهبة والآتية إلى ومن أنحاء القاهرة المختلفة. وأشارا عليه بأن يختار واحداً منها، بعد أن أبلغاه بأن العربة الأما مية ثمنها مائة جنيه، والخلفية نصف ذلك، فأبرم الجميع الاتفاق بينهم بعد أن اتفق المحتالان مع ثالث من المحتالين أيضاً، ونصّباه محامياً لذلك. وسلّم الرجل مبلغ الثمانين إلى هؤلاء (الثلاثة). وأخبروه بأن يتخير الترام الذي يريده. فاختار الترام الذي يحمل النمرة (٣٠) والذي ينتهي عِند روض الفرج، إحدى ضواحي مصر. وطلبوا إلى الرجل أن يركب ذلك الترام الذي أصبح ملكاً له منذ الساعة التي سلمهم فيها النقود، وأن يطلب من الكمساري، الذي أصبح ملكاً له ايضاً، كل ما يملك من النقود التي تحصَّل عليها من الركاب.

فعل الرجل ما أُمِر به، ومضى اولئك المحتالون في سبيلهم. وما أن وصل الترام إلى حيث انتهى، بدأ الرجل يمثل دوره.. فذعر الكمساري لحديث الرجل، وأحيل أخيراً إلى القضاء واعترف الرجل بأنه مخطئ، وأنه خُدِع. ولكن القضاء أبى وأصرَّ على معرفة ما في الأمر، وسبر غور هذا الحادث كما روته الأخبار.

وليس لنا أكثر من أن نرويه على هذه الصورة التي حدث بها.

ونزيد الآن على أن هذا الخبر قد سرى في البلاد من أقصاها إلى أقصاها، سريان البرق، وتناقلته الألسن بصورة عجيبة، وأصبح طيلة أسبوع أو أكثر، حديث الغادي والرائح، والمجالس والأندية.

فإن الذي يؤسف حقاً، أن بمصر خطراً عظيماً يوشك أن يؤدي بدعائم القومية والصلة الوطنية بين أبناء الكنانة كلهم... وهذا الخطر الداهم ينحصر في التشيع إلى جهة من الجهات، كأن يقول هذا أنا بحراوي، أو شرقاوي، وأسواني، وصعيدي، إلى غير ذلك من

النسبة إلى جهة ما.. ويعادل هذا الخطر، شبيه له بالسودان، وينحصر هذا في القبلية المقيتة، كقولهم هذا شايقي، وجعلي، ومحسي إلى غير ذلك، ولكن الذي يبعث الأمل ويبشر بالخير أن هذا الداء آخذ في الانقراض بصورة سريعة، حتى لا تكاد تسأل فرداً عن جنسه إلا وأجاب بأنه سوداني. وهذا ما يقلق بال الحكومة، التي لا تعرف في السودان غير سياسة (فَرِّق تَسُدْ) حتى في الأجناس. وهي تسعى لهذه التفرقة منذ يكون الطالب بالكُتَّاب، فتلقِّنه هذه المبادئ وتغرس في نفسه بذور هذا الداء الوبيل...

ولكن السوداني الذي لا يقيم على الضيم، وتبدو له حقيقة المكر والخديعة في أقصر من لمح البصر، لا يمكن أن تخفى عليه أمثال هذه الأراجيف التي يقوم بها كلاب السكسون في السودان،

ونرجع إلى تلك القصة ونقول أنها أخذت تسري في الألسن حتى أوشكت أن تندلع بها نيران ثورة داخلية ،إذ أثارت الأحقاد، وبعثت الضغائن من مراقدها وثارت الحفائظ في النفوس، ولم يبق بين (الصعايدة) وهم الذين يُعيِّرون بتلك القصة، وبين باقي السكان، إلا خطوة واحدة تقودهم إلى نيران ثورة لا تنطفئ جذوتها.

ولكن هذه النّار خمدت، أو أُخْمِدت إلى حين، وقد تعود الشرارة فتندلع من جديد.. وما ذلك على الأيام التي تُرينا العجب كل يوم، بجديد. وحسبنا هذا لنفتح صفحة ثانية من سجل الحياة، لنقرأ فيه الآيات والعِبَر!!

**٢٥ فبراير ١٩٤٣م**

حادث اليوم يبدو غريباً في بابه . ومهما يكن من شيء فإن الحرب هي مرجع هذه المآسي العديدة؛ وأن الروع الذي استعر في القلوب من جرائها، أمرٌ يكاد يفتك بالناس، ويذهب بالعقول الإنسانية، وبالشفقة والرحمة من قاموس البشرية.

(عثر بوليس على لحم آدمي، مقطع إرباً إرباً، يحمله رجل في (قفة) ليبيعه، وهو لشخص في العشرين من عمره)

هذه هي مأساة القرن العشرين، بل هي فضيحة القرن العشرين يمثلها أفراد من البشر، في بلد هو قِبلة العالم المتمدن اليوم.

ولست أدري بماذا يفسر هذا الحادث، مؤرخو الحوادث والتاريخ في البلاد التي تعتقد أنها قطعت في المدنية شوطاً بعيداً. هذا ما سنتركه للحوادث، فهي التي تسأل وهي التي تجيب. ولكنا نقول إنها الحرب. هي التي حملت مرتكب ذلك الجرم على تلك الفعلة الوحشية الخسيسة. فإنه اغتنم فرصة غلاء اللحوم، وجري وراءه ليشروه، فعمد إلى تلك *الفتاة المسكينة، وجعلها فريسة لمطامعه المادية السافلة، ليشبع بها نهمه،* ويسكن *بها قليلاً* من جشعه وطمعه الذي لا يُحد.

إنها فضيحة القرن العشرين، وكذب الأُلى يرمون السودان بعد هذا بالوحشية والتأخر والهمجية!!

• كنت أسير قبل أيام ولا أملك في جيبي قرشاً ولا مليماً، في أحد شوارع حلوان الهادئة الجميلة. فانبرى لي شاب صغير فقير، وفي عينه دمعة تتحدر، وفي مظهره بؤس وفقر يبكي، وفي ملابسه قذارة هي أبلغ شاهد على ادقاعه..

تقدم إليّ وقال في لهجة اليائس الحزين ( أعطني مليماً يا أفندم). فلما أبديت له أسفي قال وقد غلب عليه اليأس القاتل الحزين:( خذني معك خادماً، أو خذ جلبابي هذا لتمسح به مكتبك،) فانحدرت من عيني دمعة ساخنة، هي كل ما استطعت أن أهبها له في سبيل ما قدمه إليّ.

عجبت لهذا البؤس الذي وصل بهذا الفتى المسكين إلى هذا الحد، حتى فضّل أن يعطيني جلبابه الذي لا يملك غيره، في سبيل اعطائه ما يقتات به... إن جلبابه أعزّ ما يملك

بل هو كل ما يملكه، وماذا أفعل أنا به؟ أمسح به مكتبي!! يا لله... يا لله لبؤس الحياة، و يا لمآسيها وآلامها!!

تركت ذلك الفتى والله يعلم ما بنفسي، وما تقدمت خطوات قصيرة، حتى ارتمى على الأرض، وصاح صيحة مشوبة بكلمات ما عرفتها ثم أسلم رأسه ليديه، وأخذ يبكي بكاءً مريراً فوقفت في مكاني جاهلاً بما أفعل، وطفقت أنظر لهذا الفقير المسكين نظرة كلها ألم ولوعة وبكاء. ماذا يجدي الألم أو تفيد اللوعة، أو يغني البكاء؟!!!

لا شيء يا الله... ولكنها على كل حال زادٌ لمن لا زاد له غير الأسى، وعدة لمن لا عدة له غير الحزن والألم الدفين!!

إن بمصر كثيراً من المفارقات . فلا يسير الإنسان طويلاً أو قصيراً، إلا ويرى في كل خطوة يخطوها درساً بليغاً من دروس الحياة... فلجانب القصر الشامخ، نجد الكوخ الحقير، وفي اللحظة التي يعد فيها الغني أشهى الولائم، وأفخر أنواع الطعامـ يتضور الفقير جوعاً، ويربط بطنه من شدة الألم.

وبينما يسير أمامك الغني تثقل جيوبه الأموال، يتعثر وراءه الفقير في أسماله، وهو لا يجد قوت يومه أو ساعته!!

اللهم إنها أحكامك وإرادتك التي قضت بذلك! اللهم إنها مشيئتك وقدرتك التي تفعل بالناس ما تفعل فأنت يا الله تعلم السر وما يخفى، فاجعل للفقير في دنيا الغنى ملاذاً وهيئ له مخرجاً؛ وأنزل اللهم بقلوب الأغنياء العطف والرحمة، وأكتب عليهم اليقين بنعيم الآخرة!

لولا بوارق من الأمل في قلوب الفقراء، ولولا حياء قليل ..قليل، في عيون الأغنياء، لانقلبت الأرض جحيماً، وكان الإنسان أو طعمة فيها...

**٢٠/٤/١٩٤٤م**

**... كان ذلك قبل ثلاثة ايام، وفي مساء يوم شم النسيم. كم تمثل على مسرح هذا اليوم من روايات تثير البكاء وتبعث في النفس الأسى!!**

**ومصر دائماً فيكل العصور، ما تزال سائرة على تلك الصورة الرائعة العجيبة التي رسمها "أبو الطيب المتنبئ" في قوله**

**وكمْ ذا بِمصرَ مِن المُضحِكاتِ*** ولكنه ضحكٌ كالبكا**

**قد عجبت في ذلك اليوم عجباً لا يزال أثره كامناً في النفس حتى هذه الساعة! لقد والله غضبت وغضبت وثارت في النفس أشتات المعاني الغاضبة حتى خشيت على نفسي من مغبة ذلك الهياج.**

**خلاصة الحادث، أن زميلاً كان يود مغادرة حلوان إلى القاهرة، بعد أن قضى نهار شم النسيم الجميل في حلوان، وبعد أن تحصل على تذكرة السفر هو وصحبه وكان على وشك أن يركب القطار بعد اجتياز باب المحطة، بادره أحد العمال بسؤال ثم بجواب، ثم سؤال... إلى أن انتهى ذلك النقاش بشتم وسُباب من ذلك العامل. وزميلنا لم يزد على كلمة واحدة ولكنها شديدة الوقع في نفس الذي يحس. ثم بادر العامل بشكوى الزميل إلى ناظر المحطة ومعاونها، فما كان منهما غلا أن ثارت ثورتهما، وشتما ما شاءا، فيصيحان تارة، ويندبان الأخلاق فشباب اليوم؛ على كل حال كالا من القول ما أشبع نهمهما. وهنا فقد زميلنا هدوءه وسكونه، وطلب غلى ناظر المحطة تحرير محضر، وإيصال الأمر إلى البوليس. حدث ذلك وذهب زميلنا غلى مقر البوليس، وهناك اتضح جلياً أنه قريب أحد الوزراء قرابة شديدة، وأنه يستطيع أن يضر وينفع... وهنا بدأ الباطل يلبس ثوباً جديداً، وبدت دفة الأمور تتغير، واتصل البوليس برجال المحطة، وربما أفهموهم بحقيقة أمر زميلنا. ثم عدنا و يا ليتني لم أكن معهم حينذاك..!! ليتني لم أكن حاضراً تلك المأساة المبكية، التي تثير اللوعة والبكاء!! لقد أصبح أولئك الثائرون الذين سبّوا وشتموا ما شاء لهم السُّباب والشتم، لقد اصبحوا بعد مضي نصف ساعة من ثورتهم وغضبهم، أصبحوا في رقة الماء، ونسيم الفجر**

العليل... لقد هشوا في وجه زميلنا وقاموا من مقاعدهم ليجلسوه وكأن الأرض على سعتها أصبحت لا تقدر على حملهم.

كنت أشهد ذلك الفصل الروائي، وأنا في حالة غيبوبة شديدة، لا أكاد فيها أن أحسّ بنفسي في تلك اللحظة الرهيبة.

ثورة وغضب في حق، ثم تخاذل بهذه الصورة الشائنة، حين علموا بأن صاحبنا قريب ذو سطوة ومنعة؟!!!

يا لله من تلك المآسي الأخلاقية الفاضحة! و يا لله من ذلك الخذلان المبين..!!

إن الرجل الذي يقدم على عمل مهما كانت عواقبه، خليق به أن يتحمل النتائج مهما كان نوعها، دون أن يتزحزح من مكانه، أو يجبن أمام سلطة الباطل الغاشمة الزائفة..

لقد والله ابكاني هذا الحادث، وجعلني ناقماً على الحياة طيلة هذه الأيام.. ولولا أني أخفف عن نفسي بهذه السطور التي أكتبها، لكان الخطب أفجع، والمصيبة أعم، والحزن أقلق، والأسى أشد!!

وإنها لصور دائمة متجددة، طالما أننا لا نزال نرى شبح المحسوبية ماثلاً دائماً أمام أعيننا، وطالما أننا نقضي بأيدينا على سطوة الحق وجماله لنلبس الباطل رداء المكر والخداع!!

ولكنها مصر بلد العجائب... بلد المتناقضات.. بلد العلم والجهل، والغنى والفقر، بلد الحق والباطل.. فلو أدرك الناس أن الثبات على مبدأ ما، مهما يكن الثمن، خير من الهرب من العواقب، لكان حالنا اليوم غير الحال، وحياتنا في شتى ضروبها غير هذه الحياة.. ولكن قليل أولئك الذين يعلمون....!!

١/٥/١٩٤٤م

لعل أروع صورة أكتبها حتى اليوم، هي هذه التي تتمثل في الحادث الأخير الذي وقع بالسودان.

إنها صورة جمعت الوان الطيف كلها؛ صورة صيغت بالدماء جوانبها، وكللت بالسواد جدرانها... صورة ما كنت أعتقد في يوم من الايام أني سأكتب عنها سطراً واحداً، لبعدها عن خلدي، ونزوحها عن الدُّنو من مرامي الحقيقة...

تبدأ هذه الصورة الفذة في تاريخ السودان الحديث بتفكير الحكومة في نزع (٣٥٠) فداناً من أرض جزيرة (توتي) ذات الموقع الفريد في العالم، فهي تقع عند ملتقى النيلين، على النيل الأزرق، فقد جمعت بين روعة الأزرق وسواد مائه، وبين سلسبيل الأبيض وتهادي نميره.. فكانت بذلك الموقع الجميل أكبر مشجع يحفز الإنجليز على نزع هذه الأرض الطيبة من ايدي ابنائها.

ولكن... هل يقبل ذلك أولئك الأشاوس الأبطال، الذين يهبون دمائهم رخيصة في سبيل شبر من هذه الأرض التي كفلت لهم البقاء فيها في أحسن عيش وأشهى حياة؟!! لا... إنهم لن يقبلوا ذلك مهم تكن العاقبة، ومهما يكن المصير.. فما أن سمعوا بهذا النبأ، وما أن عرفوا نوايا الحكومة نحو هذه الأرض التي أظلتهم وآوتهم في أشد الأوقات ضيقاً وحرجاً، ما أن استبانوا تلك الحقيقة السافرة!! ثارت ثورتهم، واحتشدت جموعهم، ودماؤهم تغلي، وسلاحهم متعطش لدماء الإنجليز..

ذهبت هذه الجموع في صبيحة يوم الجمعة ١٩٤٤/٤/١٤م إلى مكتب مدير الخرطوم نطلب المفاوضة معه. والمفاوضة هنا معناها الموت والخراب والدمار، إذا ما أكد المدير حقيقة نيتهم، فأبى مقابلتهم بتلك الصورة الرهيبة، وطلب أن يقابله منهم وفد من ستة أشخاص. فكان ذلك. ولكنهم لم ينتهوا غلى حل مقنع... فخرجوا وأخبروا قومهم.. وهنا تدفقت في عروقهم الدماء، وحميَ في نفوسهم وطيس الثورة فحملوا على رجال البوليس السوداني - وأنا آسف لهذا - وتبادل الفريقان الضرب كلٌ بسلاحه، وعند ذلك استشهد أحد سكان الجزيرة، وجرح آخران... وقبض على أربعة وعشرين بريئاً منهم. ومن رجال البوليس جرح سبعة.

رقم الإيداع (٢٠١٨/١١٧)